

تفاعل الحضارات

بين إمكانيات الالتقاء واحتمالات الصراع

أ.د. علـى ليلـه
أستاذ علم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة عين شمس

٢٠٠٦

بطاقة فهرسة

الفهرسة أثناء النشر إعداد / الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية. إدارة الشئون الفنية
ليله، على.
تفاعل الحضارات بين إمكانية الألتقاء واحتمالات الصراع / على ليله. - ط١ -القاهرة : جامعة عين شمس، كلية الأداب، ٢٠٠٦.
١٠٤ ص، ٢٤ سم.
١- الحضارة
أ- العنوان
رقم الإيداع : ٢٠٧٣٢ / ٢٠٠٦ ديوى ٣٠١,٢
دار شركة الحريرى للطباعة

كلمة الأستاذ الدكتور / أحمد زكى بدر
نائب رئيس الجامعة لشئون التعليم والطلاب
ورئيس مجلس إدارة مركز دراسة الحضارات

مما لاشك فيه أن موضوع حوار الحضارات أو صراعها، ليس بجديد، بل أنه يضرب بجذوره أعماق التاريخ، غير أنه من الواضح - وبصفة خاصة فى الوقت الراهن - أنه قد ظهر على الساحة الدولية بصورة جليه، وظهر الكثير من الكتاب والنظريات التى راح أصحابها يدلون بدلوهم فى هذا المضمار، فظهرت آراء كثيرة رأت ضرورة إقامة حوار بين الحضارات، وأخرى ضئيلة لاتستند إلى رؤية فكرية، وترى حتمية حدوث الصراع بين الحضارات.

وعلى الرغم من أن المولى عز وجل قد خلق الناس شعوباً وقبائل، لكنه جل شأنه أكد على أن هذا التشعب يجب أن يهدف إلى التعارف والتعاون، وخير دليل على ذلك قوله تعالى **﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾** كما دعت كل الأديان إلى أهمية الحوار ونفت حتمية وجود صدام وصراع.

وفى ظل هذه المتغيرات التى يشهدها العالم، أصبحت الحاجة ملحة إلى التفاعل والتعاون بين الحضارات، وكذلك الحوار بين الثقافات الموجودة على سطح المعمورة، لأن التعاون سيخلق حضارة إنسانية أكثر ترابطاً ونفعاً للمجتمع البشرى، ويستطيع كل منا أن يشعر بجدوى الحوار ويؤمن بأن لدى الآخر من الفائدة ما يمكن أن ينعكس إيجابياً عليه ويؤدى ذلك فى النهاية إلى تقارب المفاهيم لإقامة تكامل واضح بين الأمم المختلفة، لأن الحوار بين الحضارات يهدف إلى المنافسة السلمية ومحاولة بناء جسور بين بعضها البعض.

من هذا المنطلق يجب علينا أن نستبعد كلمة الصراع، لأنها أمتداد لذلك الفكر العدوانى الذى نشأ على الحروب والصدام، خاصة وأن الذين يدعون إلى حتمية الصراع يعبرون عن دعوة فكرية ضيقة الأفق لاتستند إلى الواقع أو الفطرة الإنسانية السليمة التى تميل إلى التجمع والتعاون أكثر من ميلها إلى التنافر والصراع.

ومن ثم فإن جامعة عين شمس لا تألوا جهداً فى سبيل الدعوة إلى الحوار بين الحضارات، وذلك عن طريق إقامة المؤتمرات والندوات والبحث العلمى وإجراء البحوث حول الحضارات حتى يتسنى وضع القواعد والأصول الخاصة بإجراء الحوار بين هذه الحضارات.

ولايسعنى فى النهاية إلا أن أتوجه بخالص الشكر إلى الأستاذ الدكتور على ليله الذى بذل الجهد الكبير من أجل إخراج هذا العمل العلمى الأكاديمى الجاد إلى النور، ومركز دراسة الحضارات المعاصرة والقائمين عليه.

والله ولى التوفيق ،،،

كلمة الدكتور / **إبـراهـيـم جـلال**

أمـين عـام المـركـز

حرصاً منه على التفاعل الإيجابي مع كافة القضايا المطروحة على الساحة الدولية، وإيماناً منه بضرورة الأهتمام بالبحث العلمى، يفخر مركز دراسة الحضارات أن يقدم بين يدى القارىء العزيز هذا الإسهام العلمى الأكاديمى الجاد لمؤلف الأستاذ الدكتور / **على ليلة أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب جامعة عين شمس**، والذى جاء بعنوان **«تفاعل الحضارات بين إمكانيات الألتقاء واحتمالات الصراع»**.

والواقع أن هناك أسباباً كثيرة تبرز أهمية هذا العمل، أهمها سببان : الأول هو مؤلف الكتاب، وهو غنى عن التعريف، فهو رائد من رواد علم الاجتماع فى مصر، وإسهاماته العلمية الكثيرة والموضوعية كفيلة بأن تتحدث عنه، خاصة وأنه أستطاع من خلالها أن يقيم مدرسة مصرية عربية فى حقل الدراسات الاجتماعية، والثانى هو أهمية الكتاب، فقد عرض **الأستاذ الدكتور / على ليلة** داخل هذا العمل المهم موضوعات على قدر كبير من الأهمية مثل : العلوم المختلفة وأهتمامها بمفهوم الثقافة، كالأنثروبولوچيا والاجتماع والسياسة والاقتصاد، كما تعرض لمفهوم الحضارة فى نطاق علم الفلسفة والتاريخ والأجتماع على السواء وبصفة خاصة الفلسفة، والإشارة إلى طبيعة الثقافة ومكوناتها، وطبيعة الحضارة وعناصرها، والتأكيد على الحوار كآلية للاكتفاء الحضارى، وأهم المفكرين الذين تعرضوا لفكرة الحوار، والحديث عن الصراع كآلية للتفاعل الحضارى، وأهم المفكرين الذين تعرضوا لهذه الفكرة، والأسباب التى أدت إلى الصراع الحضارى والتى أكدها فى النمط الأوربى الغربى، ثم تطرق إلى قضية التنظير الحضارى حتى النصف الأول من القرن العشرين بداية من حركة الكشوف الجغرافية، وأهم

المفكرين الذين أسهموا فى هذا الموضوع خلال هذه الفترة وأهمهم شبنجلر وتوينبى وسروكين، والتنظير الحضارى فى النصف الثانى من القرن العشرين والتعرض لأهم النظريات التى قدمت تنظيراً حضارياً لتبرير الصراع القائم بين الحضارة الغربية والشرقية، مثل فرانسوا فوكوياما وصموئيل هنتجتون.

وفى المرحلة الأخيرة من الدراسة عرض لموضوع تفاعل الحضارات؛ هل هو صراع وتحدى أم حوار وتدافع، من خلال الإشارة إلى عدة نقاط أهمها الصراع لتحقيق المصالح وتعيين حدود الذات، واستدعاء إرادة التحدى كآلية للتفاعل الحضارى، والحوار كآلية للبحث عن مبادئ إنسانية عادلة، والتدافع لتحقيق تكامل حضارى وإنسانى.

وفي الختام يرفض المؤلف فكرة الصراع الحضارى، وينظر إليها على أنها دعوة فكرية ضيقة لا تتفق مع الواقع الطبيعى والفطرة الإنسانية السليمة.

ولعل المركز وهو يقدم هذا الجهد يكون قد ساهم فى نشر المعرفة وبث الوعى عن الحوار بين الحضارات، ولعله بذلك يكون قد حقق هدفاً من أهداف جامعة عين شمس.

ولايسعنى فى النهاية إلا أن أتقدم بأسمى آيات الشكر والعرفان لمجلس إدارة المركز برئاسة **أ.د. / أحمد زكى بدر**- نائب رئيس الجامعة لشئون التعليم والطلاب، وإدارة المركز برئاسة **أ.د. / محمد عبد اللطيف هريدى** - عميد كلية الآداب، والسادة القائمين على إصدار أعمال المركز.

والله ولى التوفيق ،،،،

الفهـــرس

الفصل الثالث

التنظير الحضـــارى

في النصف الثاني من القـــرن العشـــرين

الفصل الرابع

تفاعل الحضارات

صراع وتحدي أم حوار وتدافع

مقـدمـة

أصبح التفاعل بين الحضارات من الموضوعات التي لاقت اهتماما كبيـرا في السنوات الأخيرة من قبل مفكري المعمورة جميعهم. عقدت بشأنه النـدوات والمؤتمرات العديدة، وأجريت حوله البحـوث فـي مراكـز البحـث وأروقـه الجامعات. وقد بلغ هذا الاهتمام ذروته في الكتابات التي ألفها كل من فرنسـوا فوكوياما الذي ألف كتابا حول "نهاية التاريخ" وصمويل هنتنجتون الـذي كتـب مقالاً عن "صدام الحضارات" تحول فيما بعد إلى كتاب يعالج ذات الموضـوع. في أطار ذلك قدم كل منهما نظرية تحاول أن تشخص طبيعـة التفاعـل بـين الحضارات في عصر انتهت فية الحرب الباردة، وأصبح واضـحاً أن عالمنـا يخضع لتفاعلات العولمة، التي تدعمها وتعمل علي نشرها القوة العظمـي فـي عالمنا المعاصر.

وإذا كان تفكير القرن التاسع عشر ذو طبيعة سـلامية وموضـوعية فيمـا يتعلق بالحوار بين الحضارات. يتضح ذلك من قراءة نظريات كل مـن أزوالـد شبنجلر وأرنولد توينبي وبيترم سروكين الذين قدموا نظرياتهم في نشأة الحضارة وتطورها أو ازدهارها ثم أفولها. إذ نلاحظ في معالجتهم للحضارات أنهـم لـم يميزوا بين الحضارات وبعضها البعض، بل تحدد هدفهم بالأساس ببناء نمـاذج نظرية لفهم الحضارة، يمكن أن تستخدم لفهم مختلف الحضارات ومن ثم لم تكن لديهم نزعة واضحة للتمركز حول الذات. فقد حاولوا اكتشاف القوانين التي تحكم هذه الحضارات، غير أنهم لم يحاولوا تمييز حضارة علـي أخـري. ورأوا أن التراث الإنساني هو حوار خلاق بين الحضارات وأن الحضارات متساوية مـن حيث مكانتها ودورها في التاريخ، كما رأوا أن التاريخ الإنـساني هـو تتـابع عضوي بين الحضارات، من خلاله تقـدم كـل حـضارة أفـضل أبـداعاتها

للحضارات التي سوف تعقبها خلال حركة التاريخ، لقد تحلي هؤلاء المفكرون بقدر أكبر من الموضوعية ومن ثم أصابوا في توقعاتهم قدراً كبيراً من كبد الحقيقة.

علي خلاف ذلك نجد أن تنظير القرن العشرين، بخاصة نصفه الثاني، فيما يتعلق بالحضارات كان ذو طبيعة صراعية بالأساس. ولا ترجع هذه الطبيعة الصراعية إلى التراكم العلمي الذي تحقق تاريخيا فيما يتصل بتنظير الحضارات ولكنه يرجع إلى الظروف العالمية المعاصرة بالأساس. من هذه الظروف أن نظامنا العالمي بفعل التقدم الذي تحقق في تكنولوجيا الاتصال والإعلان والمعلومات أصبح بحق قرية صغيرة، ونعني بقرية صغيرة أن مكانها قد تقلص وكذلك زمانها. ونتيجة لهذا الانكماش لمقولة المكان والزمان برزت الحضارات في زمان محدود ومكان محدود في مواجهة بعضها البعض. وبدأت وتيرة التفاعل بين الحضارات ترتفع، بما يتجاوز قدرات البشر علي استيعاب متضمناته، الأمر الذي أدي إلى تراجع أبناء كل حضارة إلى الارتباط بحضارتهم برغم أنهم تعرفوا علي جوانب عديدة من الحضارات الأخرى واستوعبوا بعض جوانبها، وهو ما دفع في بعض الأحيان إلى تطوير بعض المشاعر العدائية المتبادلة بين أبناء الحضارات المختلفة.

ويتمثل الظرف الثاني في انهيار الاتحاد السوفيتي مع بداية العقد الأخير للألفية الثانية منهيا بذلك فترة خمسة عقود كاملة من الصراع أو الحرب الباردة بين الكتلة الاشتراكية والكتلة الرأسمالية. حيث انهيار الأولي وخروج الثانية منتصرة في هذه الحرب، الأمر الذي أدي إلى تغيرات هائلة في النظام العالمي، فأصبح نظام عالمي أحادي القطب، بعد أن كانت حركته مضبوطة بقطبين. ونظرت الكتلة الرأسمالية حولها فأدركت أنها منتصرة، كما أدركت أيضا أن مصادر القوة لديها عديدة بما يتجاوز كثيراً غالبية مجتمعات العالم.

وبدأت تتصرف كقوة عظمة منفردة، ومنحها ذلك إحساس بالثقة والعظمة ومـن ثم مزيد من التمركز حول الذات. ورأت أن الجميع يدين لها بالمكانـة الجديـدة فقررت أن تهيئ الظروف لاستمرار واستثمار مكانتها الجديدة كقوة عظمي، ولو أدي ذلك إلى القيام بمواجهات أو صدامات حادة وحاسـمة لكـل مـن يحـاول الاقتراب من هذه المكانة. لقد نظرت إلى العالم من أعلي، ورأت أن نمط نوعية حياتها هو الأرقي، ومن ثم قررت نشره علي العالم أي عولمته، وبـذلك بـدأت عملية العولمة.

ويتحدد الظرف الثالث بالمصالح الاقتصادية التي يساعد تحقيقها علي تزويد الحضارة بالعافية والقدرة علي الاستمرار بإعتبار أن الاقتصاد يعد أحد مصادر قوة الحضارة. ورأت القوة العظمي التي تعبر عن الحضارة الغربية الرأسمالية، أن السيطرة علي الموارد الاقتصادية، وبخاصة مصادر الطاقة كأهم مورد فـي الألفية الثالثة سوف يمكنها من تحقيق هدفها الأول الذي يتحدد بان تضع الطاقـة العالمية تحت سيطرتها، بحيث تتحول هذه الطاقة بصورة دائمة إلى قوة تـضخ العافية في بناء هذه الحضارة فتحافظ بواسطتها علي دوامها واستمرارها. ومـن ناحية ثانية فإن سيطرتها علي الطاقة العالمية والمـوارد الاقتـصادية العالميـة سوف يتح لها الظرف الملائم – بهذه السيطرة – لتحديد معدلات النمـو التـي تسمح بها للمجتمعات أو الحضارات الأخري، حتي لا تشكل أي منهـا فـي أي زمان وأي مكان تحديا لها. لذلك أتبعت آليات عديدة لفرض العولمة علي العالم ولفرض خضوع مجتمعات العالم لارادتها بصورة كاملة.

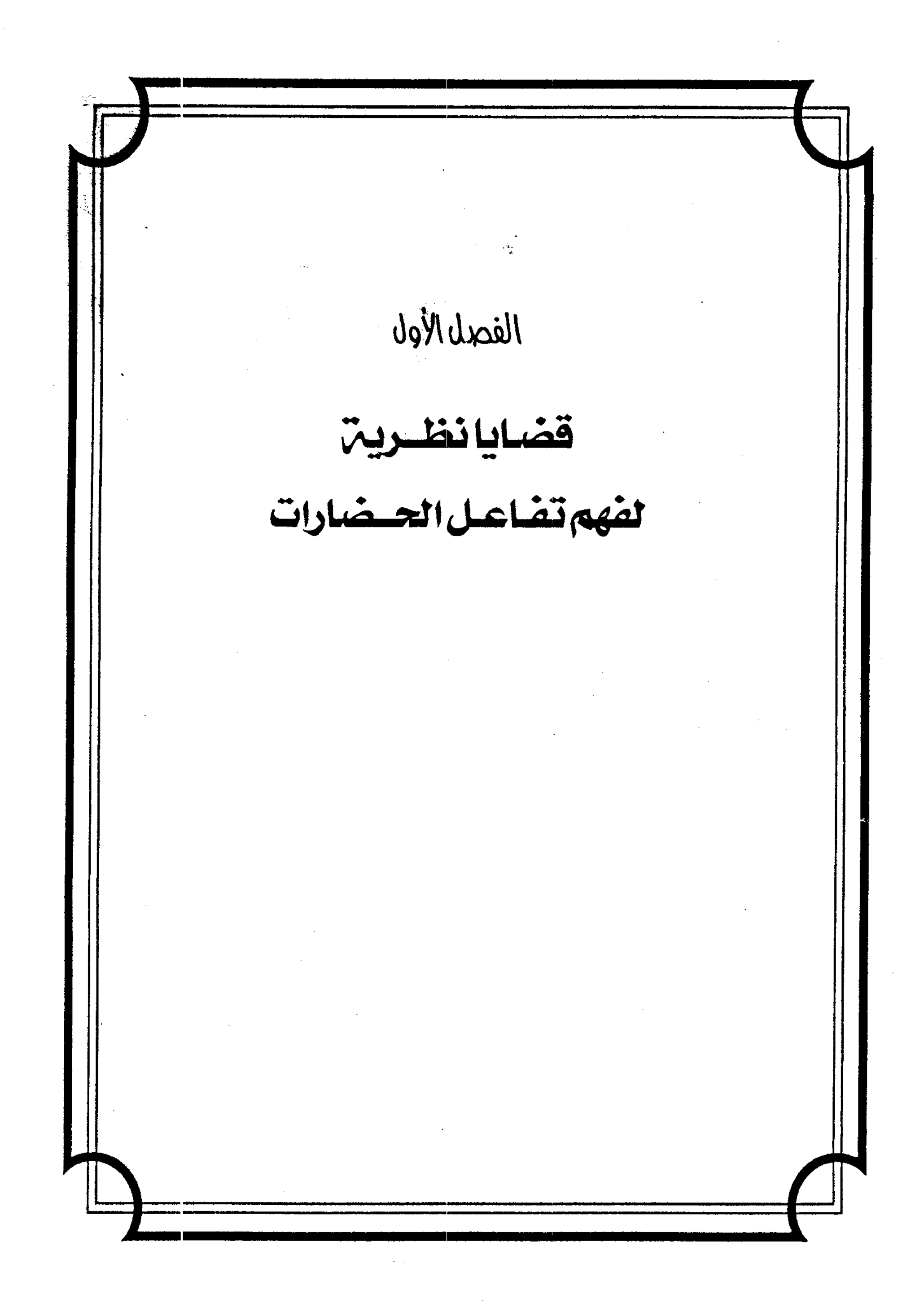
وقد كان من الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى رد فعل مـن قبـل البـشر فـي المجتمعات أو الحضارات الأخرى ضد قوي الهيمنة أو السيطرة العالمية. وهـو رد الفعل الذي تصاعد حتي بلغ تفجيرات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ التي طالت الرموز الأساسية للحضارة الرأسمالية. وبدأ الاختلاف بين الحضارات حول تـشخيص

ردود الفعل هذه، البعض يسميها "مقاومة" بينما يصمها البعض الآخر بكونها "إرهابا". في هذا المناخ العالمي الذي تسوده ظروف سلبية عديدة كان من المنطقي أن تزدهر عواطف العداوة والصراع، تطرف البعض بها فأكد أننا على أبواب صراع حضارات، بينما ذهب البعض الآخر، إلى القول بأن الحضارات أبنية راقية – حتي بحكم تسميتها – لاتعرف الصراع ولا ترتضيه. وفي هذا السياق أتفق الجميع علي أن هناك تفاعل تتصاعد وتيرته ويملأ الفضاء بين الحضارات، وإن اختلفوا حول طبيعة هذا التفاعل هل هو صراع أم حوار أم تدافع، وهو ما سوف نعرض له من خلال الفصول التالية.

لقد حاولت من خلال الفصول الأربعة التالية أن ألقي الضوء علي حالة التفاعل بين الحضارات، منذ بدأ العالم يتعرف علي ذاته أبتداء من عصر الكشوف الجغرافية وحتي عصرنا الذي أصبح فيه عالمنا يشغل كتلة واحدة، لقد بدأت الحضارات تقترب من بعضها ومن خلال إدراكها للآخر والتعرف عليه تعرفت علي ذاتها. وقد حدث ذلك نتيجة لتقلص الزمان والمكان أو في إعتقادي أن الحديث عن حوار الحضارات أو التقائها أو حتي صراعها، إنما هي إدراكات ذاتية مؤقتة وعابرة، للبشر الذين قد لا يدركون الحقيقة دفعة واحدة، لأن الحقيقة لها قانونها الخاص في التكشف والاكتمال، وأعتقد أن ما نعيشه الأن لحظات حضارية متتابعة تتكشف فيها صور التفاعل الحضاري، حوار أحيانا، وصراع في أحيان أخري، أما الحقيقة الكاملة والجوهرية فما زالت في رحم المستقبل، وعلينا أن نمتطي صهوة التأمل لنستكشف معالمها، وندعو الله، الذي نعترف به جميعا، أن يوفقنا إلى ذلك.

علي ليله

الرحاب في ابريل ٢٠٠٦



الفصل الأول

قضايا نظرية لفهم تفاعل الحضارات

الفصل الأول

قضايا نظرية لفهم تفاعل الحضارات

تمهيد

تعتبر مفاهيم الحضارة والثقافة من المفاهيم التي شغلت اهتمام العلوم الأنسانيه المختلفة التي تناولتها من زوايا عديدة. واذا كانت الانثروبولوجيا هي العالم الذي كان له فضل الريادة في التعرف علي مفهوم الثقافة Culture من خلال البحوث والدراسات الميدانية التي أجراها الأنثروبولوجيون الأوائل في نطاق المجتمعات البدائية والمتأخرة خلال فترة القرن الثامن عشر والتاسع عشر. وهو الاهتمام الذى تبلور ليشكل مجال علم خاص هو علم الأنثروبولوجيا الثقافية، ثم انتقل هذا الاهتمام بمبحث الثقافة إلى علوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد على التوالى ليلعب دوراً محورياً فى كل من هذه العلوم. على خلاف ذلك نجد أن مفهوم الحضارة Civilization ظهر فى نطاق الفلسفة وعلم التاريخ وعلم الاجتماع على السواء، ذلك باعتبار ان إهتمام هذه العلوم كان يتركز حول استكشاف التعميمات والقوانين العامة الضابطة لنشأة وتفاعل وتطور الكيانات الاجتماعية الكبرى كالمجتمع والحضارة والعالم. وإذا كانت الانثروبولوجيا قد إهتمت بالثقافة فإن ذلك يرجع لطبيعة الدراسات الميدانية الانثروبولوجية التى كانت تقتصر فى البداية على مجتمعات ضيقة حتي يمكن ملاحظة أدوات الثقافة المادية، وأيضا إدراك تأثير الجانب المعنوى للثقافة الذى يتضمن القيم والمعايير على تنظيم التفاعل الاجتماعى. ومن هنا فإننا نجد أن علماء الانثربولوجيا لم يتحدثوا كثيراً عن مفهوم الحضارة اللهم إلا حضارة المتوحشين يقصد البدائيين كما ذكر فكتورهوجو عالم الاجتماع لفى بريل.(١)

على خلاف ذلك نجد أن الحديث بصورة عميقة عن مفهوم الحضارة قد تحقق بالأساس فى نطاق الفلسفة أولاً حيث نجد إسهامات فلسفية عديدة حول المفهوم فى تصورات الفلسفة لنشأة الحضارات وانهيارها، وأيضا فى اهتمام علم الاجتماع الذى نشا فى كنف الفلسفة. ويرجع ذلك إلى أن علم الاجتماع إلى جانب أهتمامه كالأنثروبولوجيا بالدراسات الواقعية الميدانية اهتم أيضا بالكليات الاجتماعية والحضارية، لتوفير فهم لها من حيث نشأتها وآليات تفاعلها وتطورها إضافة إلى تحديد القوانين التى تضبط تفاعلها ودورة حياتها. كما أهتم علم التاريخ بدرجة أكثر بموضوعية الحضارة، وإذا كان علم التاريخ هو علم المفرد أى العلم الذى يكمن اهتمامه ودراسته على واقعه أو مجتمع أو حضارة بعينها، فإن ذلك لم يمنعه من ان يحاول أن يتتبع دورة حياة هذا المفرد، أو أن يسعى إلى تأمل وضع المفرد- أى الحضارة بالنظر إلى المفردات أو الحضارات الأخرى. (٢) بيد أن الحضارات وأن وجدت منعزلة فى بعض الفترات التاريخية إلا أنها بدأت فى الاقتراب من بعضها البعض كلما ازداد عالمنا تماسكا واتصالا. حيث اتجهت حضارات عالمنا منذ عصر الكشوف الجغرافية إلى التعرف على بعضها البعض، متحقق اتصالها بعضها البعض، وحينما قامت حركة الاستعمار الأوربي للعالم الشرقى وأمريكا اللاتينية أدركت الحضارة الأوروبية الغربية الخيرات التى لدى الحضارات الأخرى، وهى الخيرات التى يمكن الحصول على خاماتها لتشكل روافد تغذى الثورة الصناعية والنظام الرأسمالى. وفى عصر الثورة التكنولوجية والإلكترونية امتلكت الحضارة الغربية الآليات التى تستطيع بواسطتها فرض نمطها على الحضارات الأخرى إلى تصادف أن دبت فيها روح الحياة ثانية. ومن ثم فقد بدأت تعمل على تطوير ذاتها لتكون ندا للحضارة الغربية كما يحدث الآن بالصين والحضارة الكنفشيوسية، والحضارة الهندية أو الحضارات الأسيوية العديدة(٣)، فإذا لم تكن شعوبها قد استيقظت بعد فإنها تتبنى

منطق العزلة أو المقاومة. ومن الطبيعى فى قلب هذا التفاعل الجارى أن تجرى كل حضارة حساباتها لتدرك امكانياتها مقارنة بإمكانيات الحضارات الاخرى على المستوى المادى والروحى، الآن فى الحاضر فى نطاق ما هو كائن وفى المستقبل حيث الممكن أو ما يحتمل أن يكون. على هذا النحو إنبثق عن هذا التفاعل الحضارى أربعة قضايا أساسية سوف نتناولها فيما يلى بالتحليل باعتبارها تلقى الضوء على موضوع هذا الفصل. حيث تتعلق القضية الأولى بماهية الثقافة ومكوناتها بينما تتعلق القضية الثانية بطبيعة الحضارة وعناصرها الأساسية. على حين تتناول فى إطار القضية الثالثة الحوار الحضارى كآلية للالتقاء الحضارى إضافة إلى تناول الصراع خالية، آليات التفاعل الحضارى.

أولا : طبيعة الثقافة ومكوناتها :

أشرت إلى أن مبحث الثقافة يعتبر من الباحث الأساسية فى كل من علم الاجتماع والانثروبولوجيا، ومن ثم فقد قدمت تعريفات عديدة لهذا المفهوم بالإضافة إلى معالجة قضايا عديدة تتعلق ببناء الثقافة. ويعتبر التعريف الكلاسيكى الذى قدمه سايلور أدوار E. Taylor للثقافة البدائية Primitive Culture من أبرز هذه التعريفات، حيث يعرف الثقافة "بأنها ذلك الكل المركب الذى يحتوى على المعرفة والمعتقدات، والفن والأخلاق والعادات والقدرات التى يكتسبها الفرد باعتباره عضواً فى المجتمع (٤). بينما يعرف كلايد كلوكهون C. Klukhoun الثقافة " باعتبارها نسق له أصله التاريخى، ويقوم بتنظيم حياة الجماعة(٥) على حيث يعرفها رالف لينتون Ralf Linton بأنها تضم اللغة والتقاليد والعادات والنظم الاجتماعية، كما تحتوى على القيم والأفكار المحركة للبشر، وتتجسد فى الفنون والأدوات المادية (٦) كما يعرفها العلماء الألمان بقصرها على العناصر غير المادية للمجتمع الانسانى كالفن والدين والفلسفة(٧)على حين يعرفها دون مارتندال Don Martindale لكي تشير إلى

المجموع الكلى للتراث الاجتماعى للإنسان، سواء كان هذا التراث مادى أو غير مادى[٨]، كما يعرفها عالم الاجتماع الشهير بيترم سـروكين Pitrim Sorokin باعتبارها "مجموع كل ما يبدعه أو يعدله الفرد أو مجموعة الإفـراد بوسـاطة أنشطتهم الواعية أو غير الواعية[٩]، ويعرفها عالم الاجتماع الأمريكي تـالكوت بارسونز بأنها تتكون من مجموعة التوجيهات القيمة التى تتولى توجيـه سـلوك الأفراد فى مختلف المجالات الاجتماعية، وفى ذات الوقت تتولى ضبط التفاعـل الاجتماعى الحادث فى المجتمع وتحتوى على ثلاثة منظومات من القيم هى القيم الوجدانية Cathetic والقيم التفضيلية والقيم الإدراكية Cognitive، التي تشكل الإطار الذى يربط الفرد بالمجتمع[١٠] ويرتبط بمفهوم الثقافة عدة مفاهيم فرعيـة عديدة كمفهوم المنطقة الثقافية Cultural Zone والمركب الثقافى Cultural Complex والثقافة الفرعيـة Sub-Culture والثقافـة المـضادة Counter Culture والثقافة المنحرفة Deviant Culture.

فإذا نظرنا إلى العناصر أو المكونات التى تشكل بناء الثقافة فسوف نجـدها تضم أربعة عناصر رئيسية. العنصر الثانى هو العنصر التراثي وهو ما يعنـى أن جانبا كبيراً من القيم والمعتقدات والتقاليد والمعايير انحدرت إلينا من الأجيال أو الفترات التاريخية السابقة، وينطق ذلك على الثقافة المادية وغير المادية. وفى العادة يبقى المجتمع على عناصر الثقافة التى يؤدى وظيفة فى حياته الحاضرة، بينما تموت العناصر الثقافية التى لا تؤدي وظيفة فى الحاضر. ويـشكل الـدين العنصر القاعدى للثقافة، وهى تشترك مع الحـضارة فـى ذلـك، وإذا كانـت الحضارة تغطى إقليماً كاملاً أو قطاعاً كاملاً من العالم، فإن الثقافة تقتصر علـى مجتمع أو منطقة.[١١] على هذا النحو يمكن أن يشكل الدين خلفية أو قاعدة لعـدة ثقافات، حيث يصبح الحلال والحرام الدينى هو نفسه الصواب والخطأ الثقـافى. تختلف الأديان عن بعضها البعض من حيث قوة تأثيرها فى الثقافـة، وإن كـان ذلك لا يمنع من انفصال الثقافة عن الدين فى بعض المجتمعات. ويتحدد العنصر الثالث المكون فى بناء الثقافة من القواعد والمعايير والقيم الناتجة عن التفاعـل

الاجتماعى، على هذا النحو نجد أن كل مجتمع يعيد إنتاج ثقافته. فالثقافة تنتقل إليه تاريخياً من الأجيال السابقة، أو تفد إليه من الخارج، فيستعين بها فى توجيه سلوكياته أو أداء بعض المهام أو فى تنظيم التفاعل الذى يشارك فيه فى مختلف مجالات المجتمع، وقد يعمل على التعديل فيها أو تطويرها بما يلائم واقعة.فإذا كان واقعه ضعيفاً فإنه يتكيف مع الحقائق الثقافية الوافدة إليه غير أنها مع ذلك تتشكل بلونه وطابعه، وفى هذه الحالة فإن المجتمع يعيد إنتاج الثقافة بما يلائم واقعه. وتشكل البيئة الخارجية المكون الرابع فى بناء الثقافة، فى هذا الإطار يشكل النظام العالمى بيئة أى مجتمع من المجتمعات، وفى عصر الفضاءات المفتوحة وتكنولوجيا الإعلام والمعلومات المتقدمة أصبحت الأفكار والقيم وحتى عناصر الثقافة المادية تنتشر من مراكز إنتاجها إلى مراكز استيعابها أو استهلاكها، خاصة أن الدولة القومية قد فقدت سيطرتها نسبياً على فضائها الثقافي، الأمر الذى جعل الثقافات القومية والمحلية قابلة أو معرضة للتأثر بالثقافات الوافدة من الخارج، وهو ما يشير إلى أننا نعيش فى عالم أصبح يشكل قرية صغيرة وأن ثقافته تتجه إلى التجانس. وتشكل الحضارة التى ينتمى إليها المجتمع أحد المصادر أو العناصر الأساسية التى تشارك فى تشكيل ثقافة المجتمع، والحضارة على ما سوف نرى هى الأكثر دواماً من الناحية التاريخية والأكثر شمولاً من الثقافة من الناحية الجغرافية، ومن ثم فمن المفترض أن تغطى الحضارة أو تؤثر على أكثر من ثقافة، وعلى هذا النحو فمثلما أن هناك ثقافة قومية أو منطقة ثقافية، يوجد إطار حضارى، فالحضارة الإسلامية تغطى إطاراً شاملاً من الثقافات القومية كالثقافة المصرية والثقافة الخليجية، والمغربية أو السورية أو الباكستانية، حيث نجد أن هناك بعد إسلامى فى كل من هذه الثقافات (١٢)، وينطبق الأمر نفسه على الحضارة الغربية، حيث نجد أنها تغطى عدة ثقافات كالثقافة الألمانية والفرنسية والإنجليزية، إذ نجدها كعنصر قائم فى كل ثقافة من هذه الثقافات.

ويتشكل بناء الثقافة من ثلاث منظومات من القيم المتداخلة، وتعد منظومة القيم الوجدانية هى منظومة القيم الأولى وتضم القيم التى تربط الشخص بموضوعات معينة، باعتبار أن هذه الموضوعات ذات أهمية بالنسبة له كالقيم المرتبة "بالأم" أو "الوطن" أو رموز الوطن "كالراية" أو "العلم". ويستوعب الإنسان هذا النمط من القيم من خلال عملية التنشئة الاجتماعية بوسائلها المختلفة وبخاصة الأسرة. وتعد منظومة القيم الإدراكية هى النمط الثانى لمنظومات قيم الثقافة وتتشكل من المعارف والحقائق العلمية التى يستوعبها الإنسان من خلال عملية التنشئة الاجتماعية التى تبدأ من الأسرة، وإن كان النظام التعليمى والإعلامى وأدوات التثقيف العامة تلعب دوراً محورياً فى استيعاب هذه القيم، التي تضم عادة الأفكار والقيم ذات الطبيعة الموضوعية، التى يستند إليها الإنسان فى إدراك وفهم الموضوعات المحيطة به، بينما تعتبر منظومة القيم التفضيلية هى المنظومة الثالثة فى بناء الثقافة وعلى أساسها يفاضل الإنسان بين الأشياء ويختار من بينها، وفى العادة تستند منظومة القيم التفضيلية إلى القيم الوجدانية والإدراكية معاً.(١٣)

وتؤدى الثقافة دورها فى تأكيد تماسك المجتمع من خلال بعدين رئيسيين. الأول أن الأفراد يستوعبون قيم الثقافة بمنظوماتها المختلفة من خلال عملية التنشئة الاجتماعية التى تقدم بها مؤسسات التنشئة المختلفة، ومن ثم نجد أن القيم التى استوعبوها توجه سلوكياتهم وتنظم تفاعلهم فى مختلف المجالات الاجتماعية. ولأن الأفراد أعضاء المجتمع قد استوعبوا ذات القيم فإننا نجد أن لديهم اتفاقا حولها. ومن خلال البعد الثانى فإننا نجد أن هذه القيم تتحول إلى تقاليد وأعراف ومعايير تنظم التفاعل وتضبطه فى مختلف المجالات الاجتماعية. وعلى هذا النحو نجد أن الفرد تتحكم فيه قيم الثقافة التى استوعبها من خلال التنشئة الاجتماعية وتشكل ضميره الداخلي، ثم هى –أى الثقافة– تراقب سلوكه من الخارج باعتبارها موجودة فى كل مجالات المجتمع على هيئة تقاليد وأعراف ومعايير.(١٤)

ثانيا : طبيعة الحضارة وعناصرها :

شغل موضوع الحضارة المفكرين والفلاسفة لثلاثة قرون مضت ابتداء من القرن الثامن عشر وحتى نهاية القرن العشرين، وطرح كإشكالية على الساحة العالمية مع بداية الألفية الثالثة من خلال الأفكار التى طرحها كل من فوكوياما Francis Fukyama وصمويل هنتنجتون Samuel, Huntington حيث أعيد التفكير فى موضوع الحضارة من جديد. ومن التعريفات الأولى التى طرحت لمفهوم الحضارة تعريف رالف لنتون الذى يعرفها باعتبارها تشير إلى بناء يتكون من مجموعة من الخصائص التى تتجلى من خلال الحياة الجمعية لمجتمع متطور أو لفترة تاريخية بعينها كالحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية واليونانية والإسلامية والصيفية والرأسمالية الغربية[١٥]. وفى نفس السياق التاريخى يعرفها إدوارد تيلور باعتبارها تضم "كل الإنجازات التى حققتها الشعوب المتقدمة -فى مرحلتها التاريخية- وهى تتطور خطيا من الماضى عبر مراحل متتابعة تسهم الشعوب فى استكمال بنائها"[١٦]، وهو هنا يرى أن ثمة حضارة إنسانية تتطور وتسهم فيها الشعوب من خلال حضاراتها الفرعية. ومن التعريفات الحديثة التى قدمت لمفهوم الحضارة تعريف عالم الاجتماع دون مارتندال الذى يعرفها باعتبارها تشير إلى "حالة متقدمة للمجتمع تتميز بمستوى متقدم من الفن والعلم والدين" ولم يطرح المفهوم للتداول إلا فى وقت حديث[١٧]. ويذهب تعريف آخر للحضارة على أنها "تتشكل من التجهيز الفنى للمجتمع الإنسانى وهو التجهيز الذى يستند إلى إزهار العلم والتكنولوجيا والمعدات المادية الأخرى"[١٨]. وفى تعريف ثالث تعرف الحضارة باعتبارها "تشير إلى نسق ثقافى محدد التنظيم أكثر شمولاً من الثقافة وأكثر دواماً"[١٩]. وإذا كانت التعريفات السابقة تؤكد على العناصر البنائية للحضارة التى تضم العلم والفن والدين والتكنولوجيا والأدوات المادية، فإن التعريف الأخير يؤكد على

خاصتين الأولى أن الحضارة أكثر شمولاً واتساعاً من الثقافة والثانية أنها أكثــر دواماً.

ويعرف فرويد الحضارة بقوله "تدل كلمة حضارة على مجموعة الأعمــال والتنظيمات التى إذا نحن أقمناها أبعدتنا عن الحالة الحيوانية التى كــان عليهــا أجدادنا"[٢٠]. ويشير تعريف آخر إلى الحضارة باعتبارها "لا تستند إلى أســاس عرقى ولا ترتبط بجنس من الأجناس، ولا تنتمى إلى شعب من الشعوب، علــى الرغم من أن الحضارة قد تنسب إلى أمة من الأمم، أو إلى منطقة جغرافية مــن مناطق العالم على سبيل التعريف ليس إلا، بخلاف الثقافة التى هى رمز للهوية، وعنوان على الذاتية وتعبير عن الخصوصيات التى تتميز بها أمة من الأمــم أو يتفرد بها شعب من الشعوب. والحضارة هى وعاء لثقافــات متنوعــة تعــددت أصولها ومشاربها ومصادرها، فامتزجت وتلاقحت، فشكلت خصائص الحضارة التى تعبر عن الروح الإنسانية فى إشراقاتها وتجلياتها، وتعكس المبادئ العامــة التى هى القاســم المشترك بين الروافد والمصــادر والمشــارب جميعــاً. ولكل حضارة مبادئ عامة تقوم عليها، تنبع من عقيدة دينية، أو فلسفة وضعية، حتــى وإن تعددت العقائد والفلسفات، فإن الخصائص المميزة للحضارة تستمد طبيعتها من أقوى العقائد رسوخاً وأشدها تمكناً فى القلوب والعقــول، بحيــث تــصطبغ الحضارة بصبغة هذه العقيدة، وتنسب إليها، فتكون النــسبة صــحيحة، لــصحة المبادئ التى تستند إليها. "ويعرف هنتنجتون الحضارة" باعتبارها مظلة تــشمل ثقافات عديدة، وعلى هذا النحو تشكل الحضارة أعلى تجمــع ثقــافى لــشعوب وأوسع هوية ثقافية تشمل شعوب محددة، وتميز البشر عن غيرهم من الكائنــات الأخرى[٢١]، ويرى أن نظامنا العالمى اليوم يضم إلى جانب الحضارة الغربيــة عدة حضارات كالحــضارة الكنفــشيوسية Confucion والحــضارة اليابانيــة Japanese، والحــضارة الإســلامية Islamic والحــضارة الهنديــة Hindu

والحضارة السلافية Slavic-Orthodox وحضارة أمريكا اللاتينية والحضارات الإفريقية[٢٢].

ويعرض الباحث الكازاخستانى عبد الملك نفسانيائيف فى محاضرة له حول موضوع حوار "الحضارات فى العالم الحديث" لسبعة معانى لمفهوم الحضارة تترد فى كتابات الباحثين وهى كما يلى :

١- المعنى الأول للحضارة باعتبارها النظرة للمجتمع بكل مكوناته التى تكفل له البقاء، وينبغى أن يلاحظ أنه فى دراسة أى مجتمع، فإننا نجده يتركب عادة من أنساق فرعية سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية.

٢- تلعب "المدينة" دوراً مهماً فى سياق الحضارى لأنها على عكس المجتمع البسيط التكوين تتميز بتقسيم متقدم للعمل، وبتشكيل محدد للسلطة السياسية وبعلاقات عسكرية بين المدن والدول.

٣-عادة ما ترتبط الحضارة فى الوقت الراهن بالبناء الاجتماعى الحديث السائد فى الدول المتقدمة التى حققت مستوى مرتفعاً من التنمية التكنولوجية، مصحوبة بشبكة واسعة من المؤسسات المدنية والسياسية والاجتماعية والقانونية، والتى توفر للمجتمع معدلات ثابتة للتنمية، ويتم فى هذا السياق تجاهل الحضارات التاريخية التى لم تنبع من الغرب، والتى لا علاقة لها بالزمن الحاضر.

٤- أن الحضارة هى المجتمع الإنسانى المنظم جيداً والذى يمد الشخصية بالحقوق الأساسية، بما يتضمنه ذلك من حق الملكية وحرية الضمير وحرية اعتناق الأديان، وقد اشتقت عبارة السلوك الحضارى من هذا المعنى من معاني الحضارة.

٥- يتضمن معنى الحضارة عادة فكرة أنها محصلة النشاط الإنسانى، الذى تشكله المكونات المادية والتكنولوجية والاقتصادية للحياة العامة والمؤسسات الاجتماعية، وتختزل العوامل المادية أحياناً إلى مؤشر واحد يلعب دوراً

حاسماً فى المجتمع مثل عصر البرونز أو الحديد أو تربية الماشية أو الزراعة أو الصناعة.

٦- الحضارة فى أحد معانيها هى المظهر الكيفى للمجتمعات الواسعة، التى تجلت فى التاريخ العالمى، أو التى ما زالت موجودة حتى الآن، وعادة ما يشار فى هذا الصدد إلى المسيحية الغربية والمسيحية الشرقية والحضارة الإسلامية والهندية والبوذية، وقد أدت هذه الاستعمالات لمفهوم الحضارة إلى العلم المقارن وخصوصاً المقارنة بين المجتمع الغربى والشرقى، وكذلك المقارنة بين الأنساق الدينية والثقافية لمختلف الشعوب.

٧- تستخدم الحضارة أخيراً باعتبارها تمثل قيماً اجتماعية وثقافية عامة تنهض على أساس قيم عالمية تعبر عنها الأديان العالمية والأنساق الأخلاقية والقانوينة والفنية(٢٣).

فإذا قرأنا التعريفات السابقة لمفهوم الحضارة يصبح فى إمكاننا أن نحدد العناصر الأساسية لبناء المفهوم وهى العناصر التى نعرض لها فيما يلى:

١- أن الحضارة تمثل وضعاً إنسانياً متميزاً بلغة الإنسان من حيث تطور قدراته العقلية والثقافية والاجتماعية والسياسية، ومن ثم فهى تمثل وضعا جديداً عن المرحلة المتوحشة فى تاريخ الإنسان، حيث كانت سلوكيات الإنسان ككل الحيوانات الأخرى تفتقد أى تنظيم اجتماعى أو ثقافى.

٢- أن غالبية الحضارات العالمية تستند إلى الدين، فالحضارة الهندية تستند إلى الديانة الهندوكية والحضارة الفرعونية استندت إلى الديانة الفرعونية القديمة، واعتمدت الحضارة الصينية إلى المعتقدات الكنفشيوسية كما استندت الحضارة اليابانية إلى ديانة الشنتو، وتستند الحضارة الغربية الرأسمالية إلى الديانة المسيحية، وإن استبدلت بعض منظوماتها القيمية بالقيم العلمانية، كما تستند الحضارة الإسلامية إلى الإسلام، وذلك يرجع إلى

أنه نظراً لأن الحضارة تشكل أقوى الأبنية الإنسانية التى يمكن أن يؤسسها الإنسان فإنه يحتاج إلى بنية عقيدية قوية تشكل دافعية البشر لتحمل مشقة بناء الحضارة والحفاظ على استمرارها ودوامها.

٣- تعتبر الحضارة كائن عضوى حى، وتجليات ذلك أن ثمة دورة حضارية تحدث عنها مختلف المفكرون والفلاسفة، وعلى هذا النحو نجد أن الحضارة خطية فى تطورها، حيث تساهم الشعوب بإمكانياتها وثقافاتها وإبداعاتها فى إمداد الحضارة بالطاقة التى تنتقل على أساسها من مرحلة إلى مرحلة تالية. وفى هذا الإطار هناك حضارات لا تمتلك القدرة على التكيف فتموت مثلما يحدث للكائن الحى، أو لا تجد الطاقة التى تضخ فيها الحيوية فتواجه الفناء وارتباطاً بذلك تمر الحضارة على ما يذهب بعض المفكرين من مرحلة النشأة إلى القوة والهرم والشيخوخة والانهيار الذي قد يكون بداية لصحوة جديدة أو انهيار تام، وعلى مستوى الحضارات فإننا نجد أن هناك حضارة تموت وأخرى تظهر، وثالثة تظهر نتيجة التزاوج أو التهجين بين حضارتين.

٤- لا تستند الحضارة إلى عرق أو جنس معين أو حتى مجتمع أو شعب معين، وإنما نجدها كياناً كلياً وشاملاً يضم أعراقاً عديدة ومجتمعات متعددة، وحتى لو نشأت الحضارة فى نطاق عرق أو جنس معين، أو فى إطار مجتمع معين، فإن لها القدرة –على عكس الثقافة– على عبور الحدود العرقية والثقافية والمجتمعية، فالحضارة كيان كلى وشامل يضم أجناساً وقوميات وثقافات ومجتمعات عديدة تستظل جميعها بمظلة الحضارة.

٥- تتميز الحضارات بأنها تمثل مراحل تطورية متقدمة فى الحياة الإنسانية ولذلك نجد أن لديها مستوى متقدم من العلم والتعليم والفن والتكنولوجيا وخصائص نوعية حياة متطورة، بالإضافة إلى ذلك تمتلك الحضارة مستوى

عالمى من التنظيم فى مختلف المجالات، وإذا كنا نتحدث عن رأس المـال الاجتماعى أو الثقافى فإن بإمكاننا أيـضاً أن نتحـدث عـن رأس المـال الحضارى الذى يعنى امتلاك الحضارة لخبرة حضارية تساعد على تفعيلها فى مختلف جوانب حياتها بحيث تبدو الحضارة على جانب متطـور مـن الجوانب العلمية والتكنولوجية والتنظيمية.

٦- تتميز الحضارة بأنها أكثر الكائنات أو التكوينات الإنسانية شـمولاً، وهـى تتميز بنوع من الشمول الجغرافى، وعلى هذا النحو فهى تغطى مـساحات جغرافية واسعة ومن ثم تضم مجتمعات عديدة وثقافات متنوعـة جميعهـا تساهم فى بنية الحضارة فى حالة صعودها، كما أن الحضارة لها شـموليا التاريخى، بمعنى أن هناك بعض الحضارات التى استغرقت فترة تاريخيـة محدودة بينما بعض الحضارات الأخرى استمرت لفترات تاريخية طويلـة، قد تضعف أحياناً إلا أنها سرعان ما تستعيد عافيتها وقدراتها إلى حد كبير.

٧-تتميز الحضارة بأنها تستند إلى توازن بين الجوانب الروحية والمادية. ويعنى ذلك أن الطاقة الدافعة للحيوية والفاعلية فى بعـض تتحـدد فـي بعـض الحضارات بالجوانب الروحية للحضارة أو الجوانب المادية. وعلى الـرغم من تأكيد كثير من البحوث والدراسات العلمية على استناد الحضارة إلى أى من المتغيرات المادية أو الروحية، إلا أن الحالة المثالية تتمثل فـى ميـل الحضارة إلى اقتباس أو نقل بعض عناصر المتغير الآخر،وهو ما يعني إذا كانت الحضارة ذات طبيعة مادية فمن الضرورى أن تعمل علـى تطـوير بعض الجوانب الروحية فى بنائها، والعكس صحيح، أو تقـوم الحـضارة بتأسيس توازن بين المتغيرين معاً، وهو الحالة المثالية، وفى حالة اقتـصار استناد الحضارة إلى متغير واحد فإنها تواجه حتما الموت والفناء.

ثالثا :الحوار كآلية للالتقاء الحضارى :

يعد مفهوم حوار الحضارات من المفاهيم التى ظهرت على السطح أخيراً مترافقة مع مفهوم صراع الحضارات برغم كون الحوار أحد المباحث الأساسية التى بدأت مع فجرالفلسفة الإنسانية في فترة الحضارة اليونانية حيث تعرض كل من سقراط Socrates وأفلاطون Plato وأرسطو Aristole لمحاولة تحديد المفهوم، ويرى سقراط الفلسفة باعتبارها خطاباً متضمناً فى الحوار، وإن كان هدفها معرفياً غير أن الطريق لتحقيق الهدف يتم بالتنقيب عن المعرفة من خلال الخطاب الأخلاقى للحوار، ويرى سقراط أن "الحوارات ذات طبيعة معرفية وأخلاقية فى نفس الوقت ويتم اللجوء إلى الحوار بقصد إنتاج المعرفة، وتوجه الحوار المبادئ الأخلاقية عادة."(٢٤)

ويرى أفلاطون "أن المعانى المتضمنة فى الحوار تخضع للمضمون الذاتى للمتحدث، وقد سلم أفلاطون بتأثير عقل المشارك فى الحوار وكذلك بعواطفه. ولمواجهة تأثير العواطف قدم أفلاطون نظرية الحوار المنطقى الذى يستبعد العواطف الإنسانية، ومن الناحية المثالية، ينبغى أن ينبثق الحوار من التواصل العقلي الذى يؤكد على النزعة المساواتية فى التواصل، فى هذا الإطار يحري أفلاطون أهتمام العقل بالتواصل الديموقراطى والنزعة المساومتية.

وعلى هذا النحو يرى أفلاطون أن العقلانية تصبح هى المبدأ الضابطة للحوار وذلك لتأمين السلامة السياسية"(٢٥)، ومن ثم نجد أن الفلسفة الكلاسيكية تضع أساسيين لبناء الحوار أو التفاوض وهما الأخلاق والعقلانية الإنسانية.

ويعد هانز جورج جادامر Hans George Gadamer من المفكرين الذين ألقوا الضوء على مفهوم المحادثة من خلال التركيز على التأويل الذى يقع بين رفيقين يدخلان فى حوار جاد. وهو ينظر إلى التأويل باعتباره نوع من التبادل المستمر للحوار حول موضوع مشترك، وينبغى أن يشغل رفاق الحوار مكانة

ثانوية بالنسبة لموضوع الحوار، حيث ينبغى أن تمنح الأولوية للموضوع الــذى يرغب المتحادثون في فهمه، وهو يدعم الحوار كآلية تساعد المتحادثين للوصول إلى الفهم وهو الهدف النهائى للحوار، وتستند نظرية جادامر حول الفهم الشامل إلى تصوره الذى يؤكد أن كل رفيق لديه "أفق Horizon" خاص به، وهو يشكل وجهة نظر تدرك من زاوية ما يعرض عليه، وبذلك تصبح آفاق المتحادثين ذات طبيعة زمانية ومكانية فى نفس الوقــت، ويتــضمن الأفــق الإدراك المكــانى للمؤشرات الثقافية، والأكثر أهمية هو الإدراك الزمنى لآفاق الإنــسان المتعلــق بالتراث والتاريخ الذى يمدنا بالمعلومات التى يــتم التفــاوض بــشأنها حــسب منظورات جديدة. وتتمثل أهمية الحوار فى أنــه يــؤدى إلــى "تــداخل آفــاق" المشاركين فيه مما يدفعهم إلى الاقتراب من بعضهم بدرجة أكثر مــن الموقــف الذى يوجب الرؤية من زاوية واحدة. على هذا النحو يمكن أن نصل من خــلال الحوار إلى "أفق شامل Grand Horizen"، ومن ثم يدفع الحوار ما هو موقفي وخاص ليتحرك باتجاه ما هو عام. ونتيجة لذلك يــؤدى الحــوار إلــى تحقيــق التضامن بين رفاق الحوار، ويؤكد جادامر أنه ليست هناك معرفة بدون تحيــز، ولذلك فإن الحوار المستمر يؤدى إلى عدم تحول التحيز إلى سوء فهم.

وقد كان "جادامر" على وعى واضح بأهمية العلاقة بين الرفاق فى تأســيس الحوار التأويلى الحقيقى، وهو يميز في الحوار بين ثلاثة أشكال من العلاقــات، العلاقة بين الأنا (I) والجماد (IT) وهى العلاقة التى لا تسلم بذاتية أحد الرفاق. ويتحول فيها التفاعل إلى حديث من طرف واحد حيث يتحقق الفهم مــن خــلال تحويل أحد أطراف الحديث إلى موضوع للدراسة بدلاً من كونه رفيق فى عملية إنتاج الفهم أو التفسير. ويتمثل الشكل الثانى فى علاقة أنــا –أنــت ١ – Thou حيث لا ينصت أطراف العلاقة كل للآخر، فإذا انشغل كل طرف بمــا ســوف يقوله بعد ذلك، بدون أن ينصت إلى محادثة، فــإن الحــوار يتحــول حــديثين

متوازيين كل منهما من طرف واحد، ومن ثم لا يتحقق الفهم. ويتحدد الشكل الثالث للحوار بالعلاقة الحقيقية بين "الأنا-والأنت I-Thou" حيث لا يتركز اهتمام كل رفيق على تأكيد حجته وذاته بل يشارك في الحوار وعينه على الموضوع المشترك الذى يدور حوله الحوار ومن خلال، هذا الشكل الثالث فقط يمكن أن نصل إلى علاقة حوار حقيقية إلى فهم مشترك صحيح(٢٦).

- وتعد نظرية جيرجون هابيرماس Jurgen Habermas من النظريات التى تشكل حلقة فى التراث المتعلق بالحوار كآلية يمكن أن تلعب دوراً فيما يتعلق بالتفاعل بين الحضارات. ففى نظريته عن "عقلانية الاتصال" أكد على الاتصال من خلال اللغة باعتباره الطريق الأفضل إلى التفاعل الاجتماعى والإنسانى واستناداً إلى ذلك نجد أن البرهنة وإقامة الحجج تؤسس لكى توفر فهماً ذاتياً متبادلاً. حيث يؤدى الاتصال داخل المجتمع من وجهة نظره إلى نوع من التآزر غير المقيد للأفعال كما يعمل علي تصريف متفق عليه للصراعات.

وقد اعتمد بيرماس على نظريات النزعة الإنسانية فى تأكيده على صدق وجود طبيعة عالمية للمبادئ وبالمثل الاعتقاد فى العقلانية والأخلاق الإنسانية. ذلك يعنى أنه قد بدأ فى بناء نظريته بالاعتقاد فى وجود خصائص كونية Universal للكائنات البشرية تؤكد أن أخلاقها لا تعتمد على فترة تاريخية أو ثقافة معينة. وبرهن على وجود نماذج شاملة Universal Paradigms تنطبق على كل الأبنية الثقافية والمجتمعية، وارتباطاً بذلك نجده يدلل على خلاف جادامر على أن ما هو كونى وشامل يقود إلى ما هو خاص وينطبق على كل المواقف نسبة إلى طبيعتها الشاملة أو الكونية، وبرغم ذلك تفشل هذه النظرية فى التعامل مع سياسات العزل أو الاستيعاب. بالإضافة إلى ذلك فإن إعادة تطبيق نفس النموذج الشامل أو الكونى للعلاقات داخل المجتمعات وبينها يمكن أن يقود حتماً إلى ترتيب متدرج لمجتمعات العالم. ومن ثم يهدد بنقل وإعادة استتبات

الأبنية الغربية فى الثقافات غير الغربية تحت زعم قابليتها للتطبيق على العـالم، وأكثر من ذلك، فإن اعتقاده المطلق فى الأخلاق الإنسانية، برغم صحته جزئياً، يتجنب التعرض للمكانيزمات النفسية الكثيرة التى تتدخل لتدمير ما هو أخلاقـى لصالح المصالح والتفضيلات والإدراكات الذاتية.(٢٧)

وتعد نظرية العالم الروسى ميخائيـل بـاكتين Mikhail Baktin مـن النظريات البارزة لفهم الحوار بين الذوات. وهو على خلاف هيجل لا يـرى أن الذوات متعارضة بطبيعتها، ولا هى تشارك فى صراع متناقض مـن أجـل أن تتحدد فى النهاية، على خلاف ذلك يمكن فهم نموذج باكتين بالنظر إلى العلاقات التى تلعب دورها فى التشكيل المتزامن للذوات التى تشارك فى هذه العلاقـات، ارتباطاً بذلك يتضمن الحوار كما يرى باكتين أكثر من جانب حتى يمكن للعلاقة الحوارية أن تنشأ. وهنا نجد أن مفاهيم التراث والآخر وتحديد المركزية كامنـة فى النزعة الحوارية لباكتين. فى هذا الإطار يبدأ باكتين بافتراض مسبق، يشترك فيه مع النظرية البنيوية، يؤكد أستنادا اليه أنه ليست هناك أشياء فى ذاتها، ولكن الذوات تظهر من خلال علاقاتها بالذوات الأخرى، التى تحدد طبيعة الأطـراف المشاركة فى العلاقة أو العلاقات. على هذا النحو نجد أن الذات والآخر، بالنسبة لباكتين هما ذاتين منفصلتين ومختلفتين بالضرورة ولكنهما بإمكانهما أن يتبـادلا ظهورهما معنوياً، فهما منفصلين وفى ذات الوقت متداخلين، فالـذات بالنـسبة لباكتين هي معبر فارغ عن المعنى لا يمكن أن تصبح مرجعاً بسبب عدم تحددها المستمر، وبذلك تصبح الذات مفتوحة ولا نهائية إلى الأبد، لأن "الأنا I" متغيـرة أبداً عبر الزمان والمكان، وتحدد هذه الذات مركز الاتصال، الذي يتولـد فـي إطاره المعنى من خلال العلاقة بين "الأنا" واتصالاته الجانبية. وفضلاً عن ذلـك يظل مركز الاتصال، بالنسبة لباكتين، غير ثابت بصورة مستمرة بـالنظر إلـى عدم ثباته وعدم قابليته للتحديد(٢٨)، وبذلك تحدد الذات معنى هويتها من خـلال

علاقاتها بالآخر وتحاورها معه، ويصبح الحوار على هذا النحو هو الآلية التـــى تحدد طبيعة أطراف التبادل أو التفاعل.

وقد تساءل بنائيو ما بعد الحداثة وأبرزهم ميشيل فوكو Michel Foucult، وجاك دريدا Jacques Derrid وجـــان فرنـــسوا ليوتـــار Jean, Francois Lyotard حول مدى مصداقية نظرية باكتين، التى تؤكد على أن المركز يتصف بعدم استمراره بالنظر إلى عدم ثباته الزمانى والمكانى، على هذا النحـــو يمثـــل المركز بالنسبة لفوكو قمة التدرج Apogee، أى النقطة الثابتة التـــى تتكـــشف انطلاقاً منها علاقته بالهامش، حيث نجد الذات أو الفاعل هى التي تعلم الهـــامش وتنظم علاقتها معه من خلال احتكارها الأحادى لخطاب المعرفـــة، فـــى هـــذا الإطار نجد أن الذات هى فاعل المعرفة الذى يحول الآخر إلى موضوع صامت للدراسة، وبالنسبة لفوكو تظهر الذات من خلال فعل استبعاد الآخر أو الآخرين. ويدرك الآخر الذات، وتنكر عليه دائماً أن يشغل موضع الذات العارفة، فـــالآخر بالنسبة لفوكو منفصل مكانياً، ويوصم بسبب صمته، وهذا المنطـــق هـــو الـــذى يشكل علاقة القوة بين المركز والهامش، وعلى هـــذا النحـــو يـــصبح الحـــوار مستحيلاً، فالطرف الأقوى فى العلاقة هو الذى يشكل الخطاب(٢٩)، وحتى يمكن أن يستقيم الحوار أو التفاعل يطرح بنائيو ما بعد الحداثة نظرية تمكين الطـــرف الضعيف فى العلاقة لتحقيق "السلامة السياسية" واستعادة الخطـــاب المتـــوازن، وذلك "بتحقق بتحدى" المعرفة القائمة أو تقديم سرديات جديدة Narratives.

بعد أن استعرضنا النظريات المختلفة التى تناولت الحوار بـــين الأطـــراف المشاركة فيه، فإننا نجد أن المقولات التى وردت فى هذه النظريات قد تنطبـــق علي موقف يمكن أن يكون طرفا الحوار فيه شخصين أو وحدتين اجتماعيتين أو مجتمعين أو حضارتين. وقد ظل الحوار هو الشغل الشاغل للحضارة الأوربيـــة ابتداء من سقراط وحتى صمويل هنتنجتون، قـــد يجـــرع ذلـــك إلـــى الطبيعـــة

الصراعية للحضارة الغربية، على هذا النحو يمكن تطوير إطار نظرى يساعدنا على فهم أو تحليل التفاعل بين الحضارات فى نظامنا العالمى المعاصر، وهـو الإطار الذي يتشكل من القضايا الأساسية التالية :

١- وتتمثل القضية الأولى فى أن الحوار بين الذوات كان من الموضوعات طيلة التاريخ الإنسانى، منذ الحضارة اليونانية القديمة التى شكلت نقطة الانطلاق لغالبية الاهتمامات الفكرية. وقد أجمعت الفلسفة اليونانية القديمـة بتفرعاتها العديدة على عدة حقائق أساسية تتعلق بالحوار منها ضـرورة أن يتـصف الحوار بعدة خصائص منها العقلانية والالتزام بالقواعد الأخلاقية والتأكيـد على المساواة بين أطراف الحوار وإن كانت ثمة مطالبـة بإلغـاء تـدخل العواطف فى الحوار، وكذلك التحيزات المستندة إلى الأنانية والمصلحة.

٢- ويعد المفكر الألمانى جادامر أول من اهتم بعد هيجل بالحوار، حيـث رأى أن الحوار يبدأ من آفاق أو مرجعيات متباينة، إذ يتركز اهتمام المتحـاورون على فهم الموضوع استناداً إلى أن كل طرف يحاول إدراكه مـن زاويتـه، ومن الطبيعى أن يرتفع الحوار ليتحرك بهم من نطاقاتهم الذاتية إلى نطـاق موضوعى يشكل نطاق اتفاقهم المشترك، ومن ثم يكون تبـاين المتحـاورين رافداً أساسياً باتجاه تكاملهم مع بعضهم البعض، وهو ما يعنى أن مـا هـو خاص بالذات أو الحضارة يساهم فى تأكيد نزعة حضارية عالمية تساهم فيها كل الحضارات بهدف تحقيق إنسانية البشر وارتقاء الإنـسان باتجـاه هـذه الحضارة العالمية.

٣-على عكس المقولة السابقة يؤكد جيرجون هابيرماس على أن ثمـة مبـادئ إنسانية وأخلاقية عامة تتميز بها الطبيعة الفطرية للبشر، وإذا كانـت هنـاك أنانية ومصالح مؤقتة تعبر عن تحيزات ذاتية عزلت البـشر عـن بعـضهم

البعض، فإن حوارهم وتفاعلهم قد يكشف المبادئ العامة المغروسة في طبائعهم البشرية، ومن ثم فهم من خلال الحوار يصلون إلى المبادئ الجوهرية التى ينبغى أن يتفاعلوا ويتعايشوا فى ظلها، شريطة أن لا تتحول مبادئ إحدى الحضارات لتصبح هى المبادئ الإنسانية العامة التى تعترض عليها الحضارات الأخرى، وهو ما يحدث اليوم من خلال ما يعرف بالعولمة التى تعنى بالأساس عولمة نمط الحياة الغربية، وبخاصة نمط الحياة الأمريكية وفرضه على العالم بجملته.

٤- على خلاف ذلك يمكن الاستناد إلى وجهة نظر باكتين لتفسير الوضع الحضارى على الصعيد العالمى، حيث يوجد بالنظام العالمى عدد من الحضارات المتجاورة والمتفاعلة والتى يمكن أن تنعزل عن بعضها البعض بما يعد مقدمة للمشاركة فى صراع محتمل، غير أن هناك احتمال أن تسعى هذه الحضارات نحو الالتقاء، فكل من هذه الحضارات يمتلك مصدراً من مصادر القوة. فمثلاً الحضارة الغربية التكنولوجية قدرات متقدمة على الصعيد التكنولوجى والمادى، بينما تمتلك الحضارة الإسلامية تفوقاً على الصعيد القيمى والروحى، وهكذا نجد تفرداً للحضارات الأخرى فيما يتعلق بامتلاك مصادر قوة محددة. والسؤال الذى نطرحه استناداً إلى وجهة نظر باكتين فى الحوار هل يمكن أن تتخلى الحضارات عن نطاقاتها الخاصة لتلتقى جميعها فى نطاق إنسانى واحد يجمع ما لديها من مصادر القوة المتنوعة لتصبح طاقة دافعة للتقدم والرفاهية الإنسانية.

٥- يبدو أن الحوار الدائر بين الحضارات الآن يعكس وجهة نظر ميشيل فوكو الذى يرى الحوار باعتبار أن أحد أطرافه يسعى إلى استبعاد الآخر الأضعف أو استيعابه حتى لا يشكل وجوده المستقل فى الموقف قيداً أو عقبة فى سبيل

تحقيق مصالح الطرف الأقوى فى الحوار، خاصة أن هذا الآخر يعانى من الضعف الذى يمكن أن يتعمق ويزداد ويتسع من خلال إعمال آليات القوة المعاصرة ابتداء من تكنولوجيا الإعلام والإعلام والمعلومات وحتى قوة السلاح والعسكر مروراً بآليات الضغط الاقتصادى.

٦- أن القوة تقاس عادة بما هو كائن وممتلك من مصادرها وأيضاً بمصادرها المحتملة أو الممكنة، وأنه إذا كان الواقع العالمى المعاصر يشهد بتفوق إحدى الحضارات من حيث مصادر القوة التى تمتلكها فعلاً، فإن هذه الحضارة وهى تجرى حسابات القوة التى تمتلكها فعلاً، من الطبيعى أن تدرك القوة المحتملة أو الممكنة للحضارات الأخرى. وهو الأمر الذى يدفعها إلى أحد اختيارين، الأول أن تمتلك وعياً تاريخياً يؤكد أن ضمان استمرار امتلاكها للقوة الحاضرة أمر مشكوك فيه، وحتى إذا ضمنت ذلك فهل تضمن أن لا تطور الحضارات الأخرى مصادر قوتها، ومن ثم فقد تعمل باتجاه المصالحة. والثانى أن تدرك أن الحضارات الأخرى بعضها ضعيف وأمامه بون واسع حتى يمتلك مصادر القوة، ومن ثم فالفرصة سانحة لسحقه وإخضاعه وإعادة تشكيله، أما الحضارات التى بدأت تمتلك مصادر القوة فمن الضرورى العمل على حصارها حتى تظل تحت السيطرة، أليس ذلك هو الوضع الحضارى السائد فى العالم الآن.

رابعا : الصراع كآلية للتفاعل الحضارى :

يعتبر الصراع، وبخاصة الصراع الصريح الذى يتجسد فى الحروب بعداً حاضراً فى التاريخ الإنسانى، حيث تتحارب الجماعات المختلفة سواء كانت قبائل أو أمم أو حتى طبقات من أجل السيطرة، والتفوق الإقليمى أو الضم أو الحصول على الموارد الطبيعية[٣٠]، على هذا النحو فإننا نجد أن الصراعات تتفجر عادة بهدف الحصول على المكاسب أو حماية المصالح[٣١]، سواء على الصعيد الداخلى أو على الصعيد العالمى حيث الصراع بين المجتمعات أو الحضارات. غير أننا إذا تأملنا هذه الصراعات جميعاً بغض النظر عن مراتبه وطبقاته فسوف نجد أن هذه الصراعات تتميز بطبيعة متباينة وأن استندت إلى قاعدة واحدة تتمثل فى تناقض مصالح أطراف الصراع، الأمر الذى يدفع كل طرف إلى السيطرة على الطرف الآخر الذى عليه أن يقاوم لرفض السيطرة التى تفرض عليه، ومن ثم نجد أن الصراع يندلع عادة بين قوى متناظرة "أنداد" فإذا كان هناك طرف قوى وآخر ضعيف فإن الصراع ينتفى لأن القوى من المفترض أن يكتسح الضعيف ويسيطر عليه بلا مقاومة، والقوة التى نتحدث عنها ليست القوة بميزان الحاضر، ولكن القوة بميزان الحاضر والمستقبل، أي التى تعكس الكائن والممكن.

وتعد النظرية الماركسية من أكثر النظريات تجسيداً للصراع بأبعاده المختلفة، ويبدأ الصراع عند كارل ماركس بسبب تناقض المصالح بين الطبقة البرجوازية من ناحية والطبقة العاملة من ناحية ثانية. ويشكل مفهوم فائض القيمة Surplus Value الساحة التى تشهد تصارع المصالح، حيث، تسعى الطبقة الرأسمالية إلى الحصول على فائض قيمة على الطبقة العاملة، الذى هو من حق الأخيرة لأن طاقة العمل هى منشئ فائض القيمة. وحتى يمكن أن تسيطر الطبقة الرأسمالية على الطبقة العاملة لتأمين الحصول على فائض القيمة

فإنها تلجأ إلى آليات كثيرة منها السيطرة على البناء الفوقى للمجتمع الذى يتضمن الثقافة والفلسفة والدين الذى يبرر عملية الاستغلال إضافة إلى الدولة التى تستخدم فى السيطرة على الطبقة العاملة إضافة إلى آليات أخرى كضبط العملية الإنتاجية أو فرض الاغتراب على هذه الطبقة حتى تكتمل السيطرة الرأسمالية.(٣٢) فى مقابل ذلك فإننا نجد أن الطبقة العاملة تخضع للاستغلال طالما أنها لا تدرك أن لها مصالح أو أنها خاضعة لعملية استغلال، غير أنه حينما يكتمل وعيها وتتخلص من استغلالها واغترابها، فإنها تطرق طريق الصراع الدموي الصريح لتحقيق مصالحه.

وإذا قمنا بتحليل هذا الصراع كما صوره كارل ماركس فإننا سوف نجد صراع لا يندلع طالما أن الأطراف المتصارعة ليست قوتها متوازية، ويندلع الصراع حينما تصبح القوة متوازية. حيث تعمل التفاعلات الحادثة فى النظام الرأسمالى من خلال مجموعة من العمليات التى تساعد على إضعاف الطبقة البرجوازية أو الرأسمالية فى مقابل مجموعة العمليات التى تعمل فى اتجاه دعم وتقوية إمكانيات الطبقة العاملة على الصراع، وفى لحظة توازن القوى يندلع الصراع الصريح.

وقد غلبت فكرة الصراع على الفكر الأوروبى فى جميع مراحل تطوره، ودفعت الشعوب الأوربية ثمناً فادحاً لهذه الغلبة القسرية، حيث عانت أشد المعاناة من الحروب الأهلية فيما بينها، كان آخرها الحرب العالمية الثانية التى أضرمت شرارتها عقيدة عنصرية ذات نزعة استبدادية اصطبغت بصبغة الصراع الدموي القانية. وعلى المستوى الفكري والمذهبى والسياسى، كانت الأفكار الكبرى التى أثرت بعمق فى المجتمعات الأوروبية خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين أفكاراً ذات منطلقات صراعية مثل الشيوعية التى قامت مستندة إلى مبدأ الصراع الطبقى، أعلى درجات سلم الصراع، والرأسمالية التى قامت على مبدأ

الصراع ضد العوائق والموانع التى تمنع رأس المال من الانطلاق، حتـــى وإن أدى ذلك إلى الأضرار بمصالح الشعوب الفقيرة[٣٣].

ويعكس اهتمام التراث النظرى بالصراع اتساع ساحته فى العقلية الأوربية والذات الأوربية، ذلك أن فكرة الصراع تعد بعداً أصيلاً فى هذه الحضارة. وهو التراث يعود بالأساس إلى العصر اليونانى ثم العصر الرومانى اللذين سادت فيها مفاهيم الصراع بدلالاتها المتعددة ومعانيها المتنوعة انطلاقاً من عقيدة "صـــراع الآلهة" فى التراث اليونانى القديم القائم على تعدد الآلهة مما يؤدى إلـــى تفجـــر الصراع فيما بينها "صراع القوة والضعف" و"صراع الخير والـــشر" و"صـــراع الإنسان مع الطبيعة" و"صراع الإنسان مع الآلهة". وقد طبـــع الـــصراع الفكـــر اليونانى فى جوانبه الدينية والفلسفية والأدبية والفنية، كما طبع الـــصراع الفكـــر الرومانى فى مظاهره التشريعية والقانونية والسياسية والمدنية.[٣٤] ذلك يعنى أن الصراع بعدا أساساً ثابتاً من أسس الحضارة الغربيـــة الحديثـــة التـــى ورثتـــه الحضارتين اليونانية والرومانية، وظل هذا الأساس جـــذراً ثابتـــاً فـــى الفكـــر والسلوك الأوروبى فى أطواره التاريخية المتعاقبة ويدعم ذلك أنه على مستوى المعتقد الدينى نجد أن "العهد القديم" لا يخلو من روح الصراع، حيـــث تعكـــس التوراة التى يؤمن بها اليهود اليوم وطائفة من المسيحيين فى الغرب هذه الروح التى تسرى فى كتاب يعد وحياً من الله. كذلك تغلغلت هذه الروح فى المعتقـــدات الدينية، وفى العقائد الفلسفية، وفى الأعمال الأدبية والفنية، حتى صـــار الفكـــر الدينى والفلسفى واقعاً تحت تأثير الفكرة التى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الفكر الأوروبى، ومن الحضارة الغربية بصورة عامة[٣٥].

وقد تبلورت فكرة الصراع فى الفكر الأوروبى بصورة واضحة فى عصر التنوير الذى كان من أقوى مظاهره احتدام الصراع بين طبقة العلماء والفلاسفة والكتاب فى مواجهة رجال الكنيسة. ويشخص المفكر جـــونز W.S. Johones

موجزاً هذه الأوضاع فى عصر النهضة والتنوير مؤكداً أن الإنسان "قد استحوذ فى هذه الفترة بأهمية أكبر من الله، وأصبح الاهتمام بارتباط الإنسان ببنى جنسه أكبر من الاهتمام بارتباط روحه بالله،واتخذ الإنسان الطبيعة والإنسانية هدفاً، عوضاً عما فوق الطبيعة والكمال الإلهى، وبات الأمر الأهم هو ما يحققه الإنسان فى دنياه، لا ما ينتظره فى العالم الآخر، وأصبحت مطالب الفرد الإنسان تتمثل فى غنى شخصية الفرد ونمو قواه العقلية، وقابليته المعنوية، واستثمار مظاهر الجمال المتنوعة، والحياة المجلله بالنعم الدنيوية، وهكذا خرج الإنسان من كونه مرآة للمشيئة الإلهية، ومظهر ثابتاً للإستقرار ليصبح ميداناً لتجاذب قوى الطبيعة وصراعها، فلا مفر إذاً للإنسان من الالتحاق بحلبة الصراع هذه"(٣٦)، بحيث أصبحت هذه العقيدة كامنة فى الوجدان الغربى، وعقدة مترسبة فى فكر الغرب وثقافته.

وقد شكلت الفترة التى بدأت بعصر الكشوف الجغرافية وانتهت بقيام الثورة الصناعية الفترة التى قامت وحسمت فيها كثير من الصراعات الداخلية والحروب الأهلية على الساحة الأولى. ثم بدأت أوربا فى نقل هذا الصراع إلى الشرق، من خلال حركة الاستعمار حيث العدوان على شعوب مسالمة لم تعتد على الغرب، بل وجدت نفسها هدفاً لجيوشه وقواته. حيث سعت هذه القوى الاستعمارية إلى استلاب خيرات وموارد هذه المجتمعات ونقلها لتدعيم التطور الأوروبى لنشر حالة من الرخاء الذى يهيئ الصراعات على الساحة الأوربية. واستبدالها إما بصراعات أوربية على ساحة مجتمعات الشرق، أو العمل على إعادة استنبات الصراع والتنافس داخل هذه الأرض الشرقية، بحيث نستطيع القول بقدر من التأكيد أن غالبية الصراعات التى تفجرت على أرض هذه المجتمعات إبان الفترة الاستعمارية أو فى أعقاب حصولها على الاستقلال كانت

بفعل القوى الاستعمارية، وما زال هذا المنطق فى تفجير الصراعات الشرقية مستمراً حتى الآن.

فإذا تأملنا استمرار وجود فكرة الصراع على الساحة الأوربية فى القرن التاسع عشر لوجدناها قد حلت محل نظرية دارون التى أكدت على التوافق الطبيعى. حيث ساد الأوساط العلمية والفكرية الاعتقاد فى وجود درجة عالية من الصراع حتى مع الطبيعة، لأن الصراع من سماتها. بالإضافة إلى تأكيد الفكر الأوروبى خلال هذا القرن على محورية صراع البشر فى المجتمع ليس من أجل البقاء أو الوجود ولكن من أجل الحصول على فرص أفضل من أجل الاستمتاع والبقاء. وفى أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين بلور المفكرون مفهوم الصراع، وأقاموا نظرياتهم سواء فى مجال العلوم البحتة أو فى مجال العلوم الإنسانية على قاعدة الصراع بين الإنسان والطبيعة وبين الكائنات جميعاً، وقد كان حظ علوم الاجتماع والنفس والآداب والفن من التأثر بفكرة الصراع فى الحياة عظيماً.(٣٧)

فإذا تأملنا أوضاع النظام العالمى فى الوقت الحاضر، فسوف نجد: أن نظام العولمة الذى تقوده الولايات المتحدة الأمريكية، وتسعى إلى فرضه على العالم عبر مجموعة من التدابير والأنظمة التى تستند إلى الشرعية الدولية من خلال عقد المؤتمرات وفرض المواثيق والمعاهدات الدولية حول موضوعات وقضايا يراد تطويعها وصبها فى قالب دولى، للدفع بنظام العولمة إلى اكتساح المواقع وفرض وجوده على العالم فى جملته، لوجدنا أن هذا النظام يعد تعبيراً عن فكرة الصراع وانعكاساً لروحها. كما أن الحرب على الإرهاب وفق المنظور الأمريكى، تحولت هى الأخرى إلى حرب من أجل الهيمنة والتسلط وفرض المفهوم الأمريكى بالقوة، على الرغم من اختلاف المواقف الدولية بشأن مفهوم الإرهاب وأسلوب محاربته ومعالجة الدوافع المؤدية إليه والقضاء على مصادره

ارتباطاً بذلك تصنف الإدارة الأمريكية الشعوب وفق ثنائية الخير والشر، حيث نجد أن معظم المعدودين على محور الشر من المسلمين، مقابل محور الخير الذي تتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية ويضم الدول الغربية كما يضم إسرائيل صاحبة اليد الطولى فى الإرهاب والعدوان والخروج على القانون الدولي.(٣٨)

ويكشف تفحص حالة الصراع على الساحة الأوربية، علي المستوي الفكري والواقعي أن الصراع يشغل مساحة محورية فى المزاج الأوربى، وذلك استناداً إلى الحقائق الأساسية التالية :

١- وتتمثل الحقيقة الأولى فى أن الصراع فى طبيعته الأساسية يعبر عن تناقض المواقف بسبب سعى الأطراف باتجاه تحقيق المصالح التي تتمثل فى الحصول على موارد القوة. سواء كانت هذه الموارد ذات طبيعة سياسية، كتوسيع نطاق النفوذ أو فرضه، أو كانت هذه الموارد ذات طبيعة اقتصادية، أو كانت من النمط الثقافى حيث محاولة أى طرف من أطراف الصراع فرض ثقافته أو نوعية حياته على الطرف الآخر. ويشير تتبع التاريخ الأوروبى إلى كثافة الصراعات الداخلية التى حدثت على ساحته. وحينما فاضت هذه الصراعات عن الحاجة أو الطاقة الأوربية، نقلت أوربا الصراع إلى الشرق، حيث الساحة أرحب، ومن ثم فقد عملت على إعادة استنبات الصراع عالمياً بأنماط وأساليب مختلفة

٢- أن المزاج الأوروبى صراعي بطبيعته، بذوره الجنينية تجسدت فى رؤية الصراع كأسلوب أمثل للتفاعل فى الحضارتين اليونانية والرومانية ثم الصراعات التى وقعت على الساحة الأوروبية في مراحل عديدة ابتداء من عصر النهضة وحتى عصر العولمة، حيث تفجرت هذه الصراعات على جبهات عديدة. تارة كانت هذه الصراعات مع الكنيسة، وهى الصراعات التى أثمرت الإصلاح الدينى وانطلاق الثورة العلمية أوالصراع بين

الكنيسة والدولة الإقطاعية الأوربية، وهو الصراع الذى أثمر استقلال الدولة عن الكنيسة وفصل الدين عن الدولة. إضافة إلى الصراعات الداخلية التى قامت بين الجماهير والدولة المستبدة، وهو الصراع الذى أثمر النظام السياسي الجمهوري وصيغة حقوق الإنسان. وأخيراً الصراع الطبقى داخل المجتمعات الأوربية إبان الثورة الصناعية وهو الصراع الذى أنتج آليات عديدة لاحتواء احتمالات تفجره يضاف إلى ذلك الصراعات الأخرى كصراع الدول الغربية مع بعضها البعض، وهو الصراع الذى بلغ ذروته فى قيام حربين عالميتين انطلاقاً من الساحة الأوربية إضافة إلى الصراعات العرقية التى أبيدت من خلالها شعوب بأكملها، كإبادة الأوربيين المهاجرين إلى الولايات المتحدة لشعب الهنود الحمر.

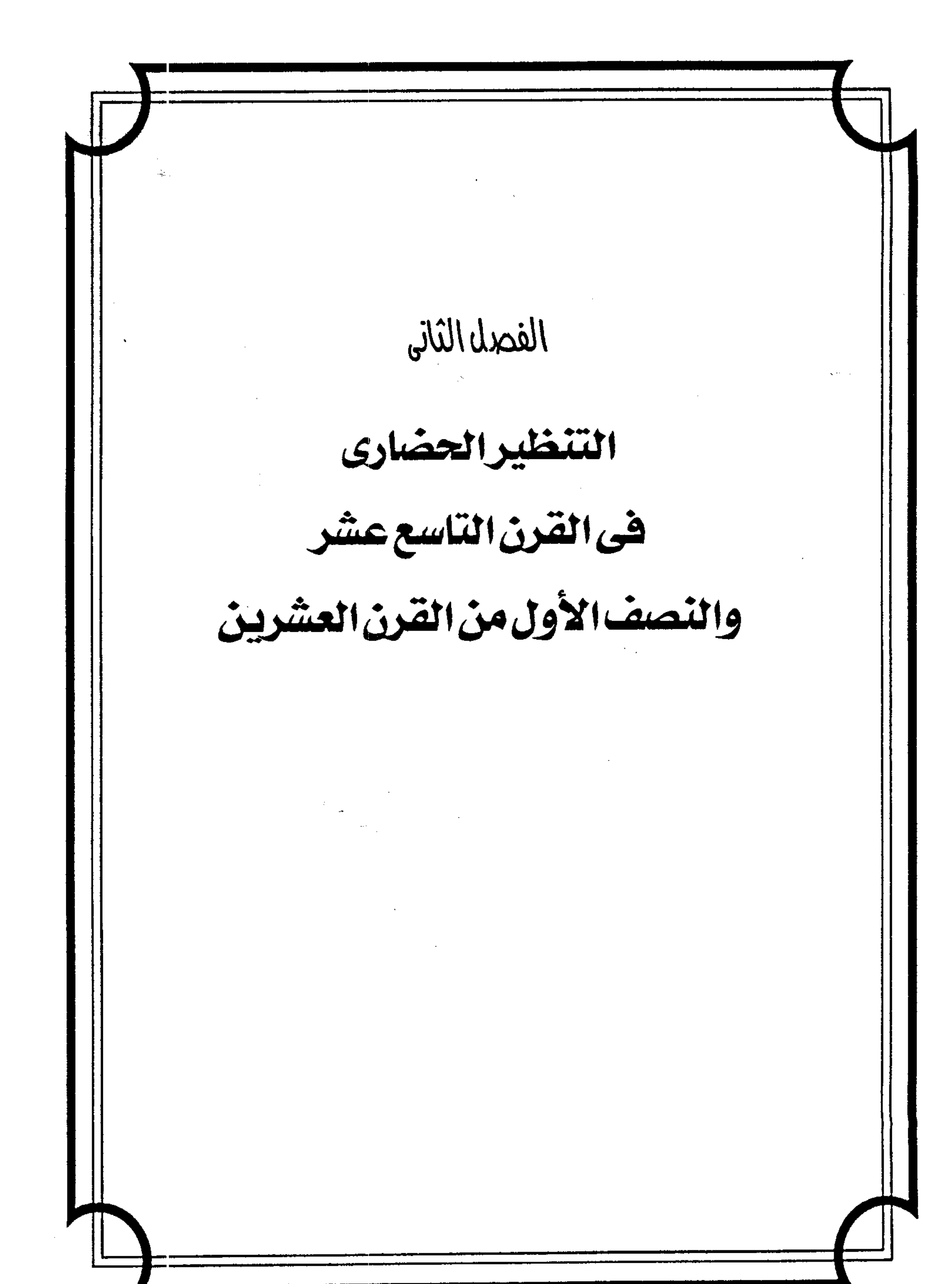
٣- أن هذا المزاج الأوروبى تجلى من خلال التنظير الأوروبى بشأن المجتمع، حيث أكد هذا التنظير على أن الصراع عنصر محورى فى المجتمع والكون، فى هذا الإطار فإن غالبية التنظير الغربى يشير إلى مضمون يعتبر الإنسان سيداً للطبيعة وليس عنصراً مخلوقاً فى تزامن معها. وأن على الإنسان أن يصارع الطبيعة لإخضاعها لإرادته وبما يساعد على إعادة خلقها بما يلائم احتياجاته، وذلك كبديل لوجهة النظر التى تؤكد على أهمية وسلامة التوافق مع الطبيعة. وفيما يتعلق بالمجتمع يؤكد التنظير الأوروبى على محورية الصراع كذلك بسبب تباين المصالح وقد جسدت معالجة النظرية الماركسية للصراع الطبقى فى المجتمعات الصناعية والرأسمالية وجهة النظر الصراعية هذه بامتياز وعلى نهجها قامت نظريات عديدة تؤكد على الصراع باعتباره نمط التفاعل الذى له الأولوية فى تشكيل تفاعل البشر مع بعضهم وتحديد طبيعتهم.

٤- أن المزاج الأوربي يعيش فى ظل حالة دائمة من الصراع، تأكيداً لذلك أنه إذا كانت الصراعات والحروب طيلة التاريخ الأوروبى ابتداء من عصر الحضارة اليونانية والرومانية وحتى النصف الأول من القرن العشرين وهى الصراعات التى انتهت بقيام الحرب العالمية الأولى والثانية قد وقعت علي الأرض الأوربية في غالبها. فإن أوربا سعت إلى توسيع ساحة الصراع من الساحة الأوربية إلى الساحة العالمية،حيث أتجهت إلى استبدال صراع الداخل بصراع الخارج. وقد بدأ هذا النمط الأخير من الصراع إبتداء من حركة الاستعمار التى بدأت مع نهاية القرن الثامن عشر، وفى إطار الحركة الاستعمارية تم إخضاع شعوب وتشويه هويتها الحضارية، كذلك سلبت مواردها، ونشر وباء الصراع على ساحتها. ونحن إذا تأملنا الصراعات الأوربية الداخلية والخارجية، لوجدنا أن الصراعات التى تفجرت على الساحة الأوروبية كانت لها آثارها الإيجابية على التطور الأوروبى بغض النظر عن الخسائر المحدودة، العارضة والمؤقتة. على خلاف ذلك نجد أن الصراعات الخارجية كانت ذات نتائج سلبية على المجتمعات التى استعمرت والتي فرض الصراع علي ساحتها وهو الأمر الذى يعبر عن الأنانية الغربية والتمركز حول الذات.

٥- أن العولمة التى نعيش فى إطارها اليوم تعد مرحلة جديدة من المراحل التى تتحمل عبئ استمرار الصراع فى المزاج الغربى. ففى أعقاب انتهاء الصراع الذى شغل فترة الحرب الباردة بسقوط الاتحاد السوفيتى وانهيار المعسكر الاشتراكى أمام المعسكر الرأسمالى وخروجه من حلبة الصراع خاسراً، بدأت القوى الرأسمالية تفتح جبهات واسعة للصراع حيث بدأت مرحلة العولمة التى أستهدفت من ورائها القوى الرأسمالية السيطرة على العالم فى جملته وإعادة صياغته بحسب طبيعتها من خلال فرض نمط

الحياة الرأسمالية عليها، وبخاصة نمط ونوعية الحياة السائدة فى الولايــات المتحدة الأمريكية، وذلك من خلال آليات كثيرة تيسرت لها ابتــداء مــن تكنولوجيا الإعلام والإعلان والمعلومات، ومــرورا المتعــددة الجنــسية، إضافة إلى سلاح المساعدات وعقد الاتفاقيات والإعلانات الدولية والسيطرة على المؤسسات الدولية، وحتى الاستعانة بالجيوش والقوة المسلحة. وحتى تحافظ على طاقة الصراع قائمة سعت إلى الــسيطرة علــى الحــضارات الأخرى من خلال محاصرة بعضها كما هو الحــال بالنــسبة الحــضارة الكونفشيوسية والهندوكية، أو السيطرة المباشرة عليهــا لإعــادة تــشكيلها بحسب مزاجها، كما هو الحال بالنسبة لموقفها من الحــضارة الإســلامية، حيث بدأت تظهر بعض الكتابات التى حاولت الإبقاء على طاقة الــصراع من خلال طرح شعار حتمية صراع الحضارات.





الفصل الثانى

التنظير الحضارى في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين

الفصل الثاني

التنظير الحضاري
في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين

تمهيد

منذ انطلاق حركة الكشوف الجغرافية وأستكشاف عالم غير العالم الاوربي، وانطلاق حركة الاصلاح والتطور الفكري الذي وقعت في مجالات الدين والعلم والفلسفة، وهو التطور الذي استغرق عصر النهضة وعصر التنوير. فقد كان منطقيا ان نجد الأفكار التي أطلق عقالها في العصور السابقة تتجسد في ثلاثة مجالات أساسية، المجال السياسي حيث لعبت هذه الأفكار والطروحات النظرية دوراً أساسيا في عملية الاصلاح السياسي للنظم السياسية في أوربا، وهو الاصلاح الذي بلغ ذروته في قيام الثورة الفرنسية، إضافة إلى الاصلاحات السياسية التي حدثت للملكيات الأوربية، بحيث ضمنت بنيتها بتوجهات ديموقراطية. وفي المجال الصناعي قامت الثورة الصناعية بعد ان عرفت البشرية الطريق إلى تحويل العلم إلى تكنولوجيا تساعد علي زيادة الانتاج وتطويره، وفي نفس الوقت تطور الحياة الانسانية عموما. وقد كان المجال العلمي هو المجال الثالث الذي تطور بفعل طاقة التنوير التي تدفقت في اطاره الأفكار التي تبلورت بعد ذلك لتشكل مجالات العلوم الأنسانية. ومن ابرزها في هذه المرحلة علوم الأنثروبولوجيا والأقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع [٣٩].

وأذا كانت حركة الكشوف الجغرافية في مرحلة سابقة قد تعرفت علي عالم جديد ومغاير فإن الأنثروبولوجيا بدأت تحاول التعرف علي طبيعة مجتمعات هذا

العالم الجديد. حقيقة ان بعض الجهود العلمية الأنثروبولوجية كانت في خدمة حركة الاستعمار التي سعت إلى المجتمعات غير الأوربية بحثا عن المادة الخام والأسواق التي تشكل رئة لإزدهار الثورة الصناعية والمجتمع الصناعي. إلا أن ذلك لا ينفي قيام علماء الأنثروبولوجيا بجهود حقيقية لدراسة طبيعة الحياة في هذه المجتمعات التي أطلقت عليها أحيانا تسمية "المجتمعات البدائية" أو "المجتمعات الأولية" أو "المجتمعات التقليدية" أو "المجتمعات البربرية أو المتوحشة Barbaric and Savage". وقد تباين موقف علماء الأنثروبولوجيا من ثقافة أو حضارة هذه المجتمعات. حيث تمركز بعضهم حول ذاته الأوربية فنظر إلى هذه المجتمعات وثقافتها باعتبارها ذات طبيعة بدائية وبربرية ومتوحشة، بينما وقف منها البعض الأخر موقفا أقرب ما يكون إلى الموضوعية العلمية، حيث أكد أنه برغم أن غالبية هذه الشعوب لم تكن علي درجة عالية من التحضر وبرغم أن هذه الشعوب ليس لديها مدن، إلا أن لديها ثقافاتها وحضارتها الخاصة التي لها منطقها الخاص، الذي ليس من الضروري أن يكون منطق الحضارة الأوربية فلكل حضارة عقلانيتها حسبما يؤكد برنسلاو مالينوفسكي (٤٠). وأن هذه المجتمعات شهدت نمو حضارات كالحضارة البولينيزيه Polynosion وحضارة الماؤري Maori (٤١). أضافة إلى الحضارات التاريخية العظيمة التي كانت لها قواعدها الواضحة في نطاق العالم غير الأوربي.

إلى جانب ذلك لعبت الأنثروبولوجيا دوراً أساسياً في جمع كم من المعلومات المتعلقة بالشعوب البدائية، وهي المعطيات التي ساعدت علي تطوير علماء الاجتماع لتصورات نظرية حول الأوضاع الاجتماعية والثقافية

والاقتصادية لهذه المجتمعات ونحن إذا نظرنا إلى المرحلة الكلاسيكية للتنظير الاجتماعي فإننا سوف نجد أن غالبية هذه النظريات كانت تقدم عادة تصورات تستند إلى أدراك التباين بين المجتمع التقليدي والمجتمع الحديث. البعض وضع هذه النماذج الاجتماعية في اطار مقارن كما فعل أميل دوركيم وفريديناند تونيس وجوج زيمل. بينما نظر البعض الآخر من العلماء إلى هذه النماذج المجتمعية في اطار تطوري، حيث تصطف نماذج المجتمعات في خط تطوري متتابع حسب شوط التطور الذي قطعة المجتمع. بذلك يبدأ التتابع التطوري من أكثر المجتمعات بدائية وينتهي عند نقطة التطور والتحديث التي بلغتها المجتمعات الأوربية [٤٢].

وأذا كان الجهد العالمي السابق قد ابرز تباين المجتمعات علي سلم التطور، فقد ساعد بالاضافة إلى الجهود العالمية لعلم الآنثروبولوجيا وكذلك الانجازات التي تحققت في نطاق الفلسفة والتاريخ والاقتصاد إلى تبلور إدراك جديد هو الأدراك الحضاري كمقابل للادراك الأول بينما المجتمع هو وحدة الادراك الاجتماعي. وقد ترافق ظهور الادراك الحضاري مع ظهور المدرسة الانتشارية، التي لم تنشغل كثيراً بتتبع تطور المجتمعات، بل أهتمت بالاساس بتفاعل السمات أو العناصر الثقافية مع بعضها البعض بسبب هجرة بعض السمات أو العناصر من سياقات ثقافية معينة إلى سياقات ثقافية أخرى. وارتباطا بذلك ظهر مفهوم المنطقة الثقافية Cultural Zone، حيث ثقافة بعينها تشغل نطاقا جغرافيا واسعاً يضم في أطارة عديد من المجتمعات. وبدأت الثقافة بهذا المعني غير متطابقة مع المجتمع. قد تظهر في مجتمع معين، لكنها تحت تأثير

آليات التجانس والانتشار والتقليد تتجاوز فضاء المجتمع الواحد لتـشغل فـضاء مجتمعات عديدة متجاورة (٤٣).

واستمراراً لضغط التراكم العالمي انتقل المفكرون إلى حوار جديـد هـو الفارق بين الثقافة والحضارة ؟ ثم ما هي الثقافة وما هي الحضارة ؟ حيث قصد بكل من المفهومين أحيانا ذات الموضوع وربما ذات الدلاله. أحيانا تكون الثقافة هي الاشمل ومن ثم تستوعب الحضارة بداخلها بإعتبارهـا تـرتبط بـالمحتمع وأحيانا تكون الحضارة هي الاشمل باعتبـار أن الثقافـة أحـد مكوناتهـا، ولأ الحضارة يسمح إطارها الشامل بضم عديد من الثقافات. وبرز اتفاق أخير علي تمييز مفاهيم الحضارة والثقافة عن بعضها البعض. حيث أعتبرت الحضارة هي الكيان الاشمل بينما الثقافة هي الكيان الأضيق الـذي ينـضوي تحـت مظلـة الحضارة. واصبح مبحث الحضارة تخصصا يشغل اهتمام طراز من المفكـرين الذين يعملون في فضاء اشمل من فضاءات علم الاجتمـاع والفلـسفة والـدين والتاريخ، نذكر منهم هيجل وشبنجلر وتونيي وسروكين. قد ينتمي أي منهم إلى أي من هذه التخصصات خاصة ما يتعلق منها بموضوع الحضارة. فـي هـذا الاطار ادركت الحضارة باعتبارها الأكثر شمولا والأكثر دواما، وأن لها مبادئها العقيدية الثابتة. في مقابل ذلك تم ادراك الثقافة باعتبار أن لها نطاقها الزمـاني والمكاني المحدود، اضافة إلى انها تشتق مبادئها ومعتقداتها من الحـضارة (٤٤). وانطلاقا من ذلك أصبح موضوع الحضارة مبحثا أساسيا مـن مباحـث الفكـر الأنسان تصدي له مفكرون عظام قدموا أسـهامات عظيمـة فـي الدراسـات الحضارية نتعرض لبعضها فيما يلي.

أولاً :نظرية شبنجلر Oswold Spengler (1880 – 1936) : قدم شـــبنجلر نظرية عن الحضارة في مؤلفه الشهير "أفول شمس الغرب" الذي ظهر في سنة ١٩١٨، أي بعد سنوات من قيام الحرب العالمية الأولي ز ويشير تأمل نظريتـــه إلى تأثره الواضح والعميق بالتصور العضوي، وهو التـــصور الـــذي يتجلـــي بوضوح من خلال أفكاره بصوره دائمة. وإذا كانت السيرة الذاتيـــة وتـــواريخ الحياة هي الآليات التي نتعرف من خلالها علي تاريخ حياة الفرد، فإن البحـــث التاريخي وكل أنواع التحليلات المتعلقة بالشعوب البدائية والمقارنه بينها، هـــي الآلية الملائمة لكي نتتبع حياة هذه الشعوب الغربية، علـــي العقليـــة الأوربيـــة، وكذلك الأزمنة والعادات وروح الثقافة والحضارة. فمن خـــلال هـــذه الوســـائل استطعنا أن نكتشف – حسبما يذهب شبنجلر – أن الثقافـــة الهنديـــة لهـــا روح لاتاريخية بصورة كاملة عبرت عن نفسها من خلال نيرفانا "السعادة القـــصوي التي تؤكد علي معل الشهداء" وهو ما عرف بنيرفانـــا البراهمـــا. Brahama Nirvanaونتيجة لذلك يتضح لنا سبب حقيقة أنه ليس هناك علم هندي للفلـــك، ولا تقويم سنوي ولا تاريخ. وفي حين نجد أن الهنود يغفلون عن كل شئ، نجد أن المصريين يتذكرون كل شئ، وذلك لان الحضارة المصرية تاريخيـــة فـــي جوهرها، تحثها علي ذلك العبادة البدائية لماضي العالم ومستقبله. [٤٥]

وقد اسس شبنجلر في بنائه نظريته فصلا كاملاً بين الثقافة "باعتبارها ذاتـــا عضوية حية" والحضارة باعتبارها الهيكل الخارجي الميت الذي يجسد اثـــار أو بقايا ثقافة كانت حية في أحد العصور. تعبر هاتين الظاهرتين، النمو العـــضوي والموت، عن نفسيهما في الحياة الفلاحيةPeasantary ، من حيـــث أرتباطهـــا وبقائها خارج التاريخ، كما تعبران عن نفسيهما في الحياة المدنيـــة الحـــضرية، باعتبارها آليات بناء التاريخ والحضارة [٤٦]. وهـــو مـــا يعنـــي أن المدنيـــة أو الحضارية هي التي تصنع أحداث التاريخ وهي التي تبني الحضارة ايضا بعيـــداً عن الريف غير المشارك في هذا الجهد. ارتباطا بذلك يعبر التاريخ عن درامـــا

عدد من الثقافات العظيمة، التي تزدهر كل منها بدائية من تربة إقليم معين تظل مرتبطة بقوة به طيلة دورة حياتها، حيث تتأثر كل مرحلة من مراحل هذه الدورة بالأقليم الأم في روحها، وطبيعتها المادية، وطابعها الأنساني، وصورتها، وأفكارها ومشاعرها، وحتي موتها. وهنا نجد أن الثقافات والشعوب واللغات والحقائق والألهة تزدهر وتكبر كشجرة السنديان في أطوار نموها المتتابعة. ويتصل بذلك أننا نجد أن كل ثقافة تمتلك امكانياتها الجديدة والخاصة بها في التعبير عن نفسها من خلال مراحل النشأة والظهور، والنضج، ثم الضعف والاعتلال [٤٧]. وذلك يعني أن شبنجلر يري أن الحضارة كائن له دورة حياة تمر عبر عدة مراحل لميلاد الحضارة، الشباب والنضج والهرم والموت حيث تمر كل الحضارات بهذه الدورة. استنادا إلى ذلك يقدم رؤية متشابمه للحضارة الغربية، حيث يري أن الحضارة الغربية عبرت خلال مرحلة النضج الثقافي إلى مرحلة التراجع والتردي المادي، وأن المستقبل سوف يشهد أنهيارها، ولا يمكن أن تستعيد قوتها ثانية. فالحضارات تزدهر وتنهار، وهي في ذلك مثل الكائنات العضوية، حيث استحالة أن تجدد الحضارة نفسها ثانية.

ويشير تأمل نظرية ازوالد شبنجلر إلى أن التوجه الأيديولوجي الذي عبر عنه في تدليلة كان يتصف بكونه تراجعاً إلى الخلف، وتحيزا مضادا للعلم. وبينما كان هذا التوجه الأيديولوجي يعبر عن تمرد لمدرس مدرسة الماني ضد الموت الذي تقود النخبة المجتمع نحوه، فأن التأمل الريفي الكامن يتوافق مع التحرر من الوهم الذي أعقب الحرب العالمية الأولي. فقد برز في القرن العشرين اهتماما متكرراً ودراسات تهتم بقضية موت الحضارة "Death of Civilization" حيث يمكن أن نميز في كل هذه الدراسات وجود شبه دينية ومضادة للنزعة الوضعية [٤٨].

ثانيا : نظرية أرنولد توينبي في الحضارة : قـدم أرنولـد تـوينبي Arnold Tognbee 1889 نظرية في الحضارة لا تختلف كثيراً عن نظريـة أوزوالـد شبنجلر الذي تناول الثقافةCulture باعتبارها وحدة للدراسة. وقد أكد توينبي أن الوحدة الملائمة للدراسة التاريخية ليست الدولة القومية ولا الأنسانية كوحدة تقف علي الطرف المقابل، بل المجتمع بمعني Society هو الوحدة الإنسانية الملائمة لدراسة الحضارة، ولم يبرهن تحليله فقط علي وجود وحدة إنـسانية يمكـن أن ننظر اليها بإعتبارها المجتمع الأوربي الغربي. في هذا الاطار نجده قد أكد علي وجود أربعة مجتمعات حية أخري علي الأقل في الوقت الحاضر. الأولي هـي الحضارة المسيحية الأرثوذكية التي تشغل منطقة جنوب شرق أوربا وروسـيا. وتضم الثانية المجتمع الإسلامي وتركزها في المنطقة الجرداء التي تقـع فـي شمال أفريقيا وحتي الشرق الأوسط، ومن المحيط الأطلنطي حتي سور الـصين العظيم. والثالث هو المجتمع الهندي Hindu الذي يمتد علـي مـساحة القريـة الهندية بأكمالها. ثم المجتمع الشرقي Eastern Society الذي يشغل الأقـاليم الأستوائية والمعتدلة بين المنطقة الجرداء وحت المحيط الهادي(٤٩).

في هذا الاطار نجد أن توينبي يتناول الحضارة بإعتبارها أحـد انـواع المجتمعات التي تختلف عن المجتمعات البدائية. في هذا الاطار يتم النظر الي الحضارات بإعتبارها كيانات متطوره بسبب حضور الـنظم فـي بعـضها وغيابها في البعض الآخر، أو بسبب الأختلاف في طبيعة تقسيم العمل بينهمـا. وهو يؤكد أنهما يختلفان بلنظر إلى نوعية الحياة الداخلية لكل منهمـا. إرتباطـا بذلك ينظر أرنولد توينبي إلـى التقليـد Mimesis or Imitation باعتبـاره الخاصية المحورية لكل أنواع الحياة، وله فاعليته في المجتمعات البدائية وفـي الحضارات علي السواء، ثم منتشر في كل نشاط. ويؤدي التقليد دورة بـصورة مختلفة في كل من المجتمعات البدائية الذي يقع التقليد فيها بإتجاه الماضي. فـي مثل هذا المجتمع يظل المجتمع مستقرا استقرار القواعد والعادات التي يتبعهـا.

بينما نجد من ناحية أخري أن التقليد في المجتمعات التي تعيش في ظل حضارات متطورة، يتوجه التقليد نحو الأشخاص المبدعين الذين يسيطرون علي الأنتاج لكونهم رواد ومبدعين.

ويشبه أرنولد توينبي المجتمعات البدائية بشعب ينام علي حافة جبل مع وجود جرف بارز أسفلهم والجبل أعلاهم.ويشبه المجتمع الحضاري رفاق هؤلاء النائمين، الذين إختلفوا عنهم في كونهم بدأوا في تسلق الجبل. ويذهب "توينبي" إلى التأكيد علي أن المقابلة بين المجتمعات الفاعلة والسلبية يتم تشخيصها بالتصورات الصينية لمفهومي Yang الذي يعني حالة النشاط والفاعلية ومفهوم Yin الذي يعني حالة السلبية وعدم الفاعلية. ويرح سؤالا حول المتغير الذي يدفع بالمجتمع من الحالة السلبية إلى الحالة الايجابية ؟. في هذا الاطار تفشل محاولة فهم الحركة من المجتمع البدائي إلى المجتمع الحضاري استنادا إلى السلالة أو البيئة في التعامل مع الحضارة باعتبارها كائنا حيا. وهو يؤكد أننا نكون في وضع أفضل إلى حد بعيد اذا نظرنا إلى نقطة انطلاق الحضارة باعتبارها مواجهة بين ذوات فوق البشر Superhuman Personalities. وهو يوضح ذلك بتأكيده أن المجتمع أثناء حياته يواجه وضعا تتكالب المشكلات في نطاقه عليه، في هذا الاطار تشكل كل مشكلة تحديا يخضع في اطاره المجتمع لمحنه. في نطاق ذلك تمثل المحن الشخصية للنبي "أيوب Job" و"فاوست Foust" في اللغة الحدسية الروائية، المحن العديدة واللانهائية التي يواجهها البشر وتأكيداً لذلك فقد رسم نفس المواجهة بين الذوات فوق البشرية في سفر التكوين والعهد الجديد. فقد عبر طرد آدم Adam وحواء Eve من الجنة عن مواجهة بين "رب البرانيين Yahweh والشيطان Serpent. وفي العهد الجديد فإن آلام المسيح ليست أكثر من فداء للانسان. حيث تكشف هذه القصص حالة كاملة من "السلبية Yin" في اطار ذلك فإننا نجد أن فاوست قد كان كاملاً في المعرفة، كما كان "أيوب" كاملاً في تقواه ورضاه. وقد كان "آدم" و "حواء"

كاملين في براءتهما، كما كانت العذراء كاملة في جمالها وطهارتها. وفي عالم الفلك تعتبر الشمس هي الكوكب الكامل، كما تعد "الحالة السلبية Yin" كاملة في سكونه وسلامها، قبل أن تستعد للانطلاق إلى حالة "الايجابية والفاعلية Yang".

وفي هذه الحالة السلبية والسلامية الكاملة يبرز العامل أو المتغير الذي يمزق هذا السلام أو السكون، إبليس في سفر التكوين والشيطان في كتاب أيوب. حيث ينبغي أن يتدخل عامل معين يلعب دوره بصورة محسوبة لأستنفار مختلف جوانب الأبداع. وعلي هذا النحو فحينما تنهض الحضارات كإستجابة ناجحة للتحدي الذي يبدا في فقد قوته المبدعة فأن التباين يحدث حينئذ. في نساق ذلك لاحظ توتبني أن الحضارات المتوعكة هي الحضارات تنحل وتتراجع إلى حدود حكم الأقلية المسيطرة التي تسيطر بواسطة القهر المتزايد، غير أنها ما لبست أن تستبدل بواسطة الأغلبية "الداخلية أو الخارجية" أو تؤدي اليها. وهي الأغلبية التي تستجيب لهذا التحدي لكونها قد أبقت علي جوهرها حياً. ويستمر الصراع بين هذين الارادتين، في هذا الاطار نجد أنه بينما تميل الحضارة التي ترتبط بها القلية تتجه نحو السقوط، فإننا نجد الأغلبية تنطلق فوراً من حذرها الروحي الذي أصبح الآن سجنا أو "مدينة خراب" بالنسبة لها. وحينما يحدث ذلك فإنه يؤدي حتما إلى إنطلاق الحضارة.

وحينما يعاني المجتمع من الأنهيار، وتتوقف القلة المبدعة علي ان تكون مبدعة، ومن ثم يصبح مجرد قلة "مسيطرة"، فإن هذه الحالة تستدعي المبدع ليلعب دور "المنتصر Conqueror" الذي يرد علي التحدي بإستجابة منتصرة. حيث يستدعي بصورة تلقائية ليلعب دور المنقذ Savior للحضارة المنهارة. وسوف يحاول المنقذ ان يتجه نحو التاريخ المهجور لكي يعيد بناء الماضي المتخيل. بينما سوف يحاول "المنقذ" الذي يتجه نحو المستقبل القفز باتجاه مستقبل الذي يتخيله ويسعي إلى تجسيده (٥٠).

ثالثا : نظرية بيترم سروكين في الحضارة : ولد عالم الاجتماع بيترم سروكين Pitrim Sorokin عام ١٨٨٩ في قرية تقع شمال شرقي روسيا وتخرج مـن جامعة سان بطرسبرج، وعمل في مهنة التدريس والبحث وقت اندلاع الثـورة البلشقية. وقد عمل سكرتيرا لألكسندر كيرينسكي Alexand er Kerensky في سنة ١٩١٧، ثم قبض علي الشيوعيون بعد ذلك، وحكم عليه بالاعدام ثم أستبدل الحكم بالنفي. وبسبب ذلك انتقل إلى الولايات المتحدة بعد أن قضي عامين فـي تشيكوسلوفاكيا، وقد قام بكتابة عدة مؤلفات اساسية في علمالاجتمـاع ودراسـة الحضارة، ثم عين أستاذا لعلم الأجتماع في جامعة هارفارد، وأثناء ذلك عمـل علي تطوير نظريته الاجتماعية في الحضارة التي سوف نعرض لها الآن(٥١).

ويتشكل محور نظرية سروكين في الحضارة من أحد أشـكال المـذهب العضوي المثالي. وقد صاغها بصورة منظمة في مؤلفه "الـديناميات الثقافيـة والاجتماعية Social and Cultural Dynamics" الذي صـدر فـي الفتـرة (١٩٣٧ – ١٩٤١) وكتابة المجتمع والثقافة والشخـصية Society, Culture and Personality الذي صدر في سنة ١٩٤٧. وتتمثل الحقائق الأساسـية أو الجوهرية بالنسبة لسوكين في الحقائق ذات البيعة العقلية Mentalistic. ويمكن التعرف عليها من خلال وجودها العالم الشامل الثقافي والاجتماعي للآنسان (٥٢). وتلك حقيقة مؤكدة ليس بالنسبة لظاهرة محدودة كظاهرة الانتحار ولكن أيـضا بالنسبة للظواهر الاجتماعية الاخري كالجريمة Crime والثورة Revolution والحرب وبصورة عملية كل الظواهر الاجتماعية الثقافية.

ويعد نقد سروكين الجاد للمذهب الوضعي حول نسبية الحقيقة الأنسانية من المؤشرات الهامة لبداية نظريته عن الحضارة. حيث يري سـروكين أن هنـاك ثلاثه أنساق متميزة هـي الحقيقـة أو الـصدق Truth والأدراك Cognition والمعرفة Knowledge. فالحقيقة الروحية Ideational Truth تـوحي بهـا

عظمة الله، من خلال الأنبياء والكهنة، وهي حقيقة مطلقة، وليست ذات طبيعة نفعية Non-utilitarian وليست برجماتية Non- Pragmatic كذلك. وتعبر الحقيقة المثالية Idealistic Truth عن تأليف من أشكال الحقيقة الحسية وفوق الحسية. وفي هذا النطاق يعد دور الحواس في التحقيق الحسي من الحقيقة أو الصدق من الأمور المسلم بها، غير أن الحقيقة فوق الحسية الصادرة عن الله موضع تصديق دائم. وتؤكد الحقيقة الحسية على أن القيمة الصادقة محسوسة بالاساس، وأن الادراك ينتج فقط نتيجة لأعمال الحواس. وعلي هذا النحو فهي تنكر الحقيقة فوق الحسية كلية، بالاضافة إلى ذلك فإنها تؤيد دراسة العالم الحسوس في علاقاته الطبيعية والكيمائية والبيلوجية (٥٣).

وفي مؤلفه "الديناميات الثقافية والاجتماعية" الذي يعالج فيه هذه القضايا أو الموضوعات بنوع من العمق والشمول، قدم سروكين تصوراً بوجود حقيقة تعلو علي كل هذه الحقائق أو تحل محلها. وهو يؤكد أن هذه النساق الاساسية الثلاثة للصدق او الحقيقة قد تكون صادقة كلية أو زائفة كلية أو صادقة في بعض جوانبها وزائفة في أخري. ولهذا السبب فإن النسق اكامل للصدق أو الحقيقة ينبغي أن يضمها الثلاثه (٥٤). وفضلا عن ذلك فعلينا أن نسلم بأن الحقائق التي نصل اليها من خلال الحدس هي أعمقها جميعا. وتعلن كل الاديان السماوية الكبيرة صراحة أنها ليست الا تجسيداً للحقيقة فوق العقلية، وفوق الإمبيريقية وفوق الحسية التي منحتها العظمة الالهية المطلقة لأشخاص منحوا القدرة علي إستقبال وحي السماء كالأنبياء والقديسين والمتصوفة والكهنة، حيث نجد أن خبرة هؤلاء البشر – وهم هنا أدوات – هي خبرة صوفية وفوق عقلية.

ولا تتطابق الحقيقة الكاملة مع أي من أشكال الحقائق الثلاثة هذه، وان كانت تحتويها جميعاً ومن خلال هذا الاطار ذو الابعاد الثلاثة للصدق الخاص بالايمان والعقل والحواس، فإن الصدق الكامل يصبح أقرب ما يكون إلى الصدق

المطلق بدرجة تفوق أي شكل واحد من الاشكال الثلاثة للصدق. حيث نجد أن الجانب الامبيريقي المحسوس لهذا الصدق الكامل يمكن أن نحصل عليه من خلال الحواس، ويمكن أن نتعرف علي الجانب العقلاني للحقيقة من خلال صدق العقل، كما نتعرف علي البعد أو الشكل فوق العقلي للحقيقة من خلال حقيقة الايمان. وعلي هذا النحو يبدو أن سروكين لم يتحرك قريبا من نطاق المذهب الوضعي كلية، بل ظل حسبما اراد قريبا من المطلق بصورة واضحة.

وتتضح الطبيعة الجوهرية لنزعة سروكين العضوية بدرجة أكثر من خلال تصورة للأنساق الفوقية العظيمة، وجميعها كما يؤكد تدرك بواسطة آلية الحدس، حيث الحدس بها أصيل في الدين والأخلاق والفلسفة والأنساق الفنية والجمالية، وحتي في المنطق الرياضي والفكر العلمي. ومع ذلك نجده يؤكد أنه ليست هناك جماعة أو مجتمع أو حضارة تبدع كل شئ وبصورة شاملة ولكنها تقدم إسهاماً أو جزء في التطور الحضاري الشامل. مثال عبي ذلك يتمثل الانجاز الحقيقي للحضارة الأغريقية في الفلسفة والفن الراقي، بينما يتحدد إنجاز الحضارة الرومانية في تاسيس المبدع للأمبراطورية السياسية، أو في تأسيس النظام العسكري والنظام القانوني. ويتجسد انجاز الحضارة العبرية في الدين والاخلاق والأدب. وقد عبرت حضارة مجتمع القرون الوسطي عن إبداعها من خلال نشأة وتنظيم المسيحية. علي حين تحقق أبداع الحضارة الغربية من خلال العلم والتكنولوجيا والفلسفة والفنون الجميلة. وحول هذه القضية يتفق سروكين في آرائه هذه مع أراء دانيلفسكي وشبنجلر وتوينبي ونورتروب. حيث نجدهم جميعا يؤكدون علي أن الحضارة العظيمة يتجلي إبداعها عادة في مجال واحد فقط، وإتساقا مع ذلك يري سروكين أن ابداع الحضارات ليس في كل المجالات ولكن في بعض المجالات فقط.

وهو يؤكد أن أي نسق جديد للمعاني ينبغي أن يتخذ في البداية شكل التصور العقلي فقط. وعليه أن يسعي بداية إلى التموضع من خلال الأدوات الناقلة للمعاني، ثم يتم نشرها حتي تصبح معرفة يمتلكها الآخرون من البشر. فإذا حاولنا تصور مقارنه أي نسق أيديولوجي يتصور الكائن العضوي فإن تموضع النسق اليديولوجي يشبه ولادة الكائن العضوي. اذ نجد ان بعض الانساق التي تم إبداعها وتأسيس آليات نقلها وتنشئة البشر وفقا لمعانيها قد حققت وتحولت إلى أنساق فوقية Super Systems. واذا امتلك، أي نسق حضاري أو أيديولوجي بأي من الخصائص الثلاثة التالية فإنه يتحول إلى نسق حضاري أو أيديولوجي شامل أو عظيم وهي (أ) أنه ينبغي أن يمتلك القدرة علي التكشف إلى أنساق أيديولوجية شاملة أو عظيمة، من ناحية تامعاني ومن الناحية العملية (ب) كما أنه ينبغي أن يشبع حاجة أساسية لقطاع كبير من البشر في أي مجتمع سكاني. (ج) ةأخيرا أنه من الضروري أن يمتلك القدرة علي الاستمرار والدوام. فالنسق الأيديولوجي المحدود ينبغي أن تكون له علاقة بحقيقة أو قيمة دائمة. ولكي ينمو النسق الأيديولوجي أو الحضاري فغن افكاره ينبغي أن تتطور بالتبادل من خلال عملية تفاعل المعاني، وأيضا من خلال التراكم الكيفي والكمي للمعاني، كما ينبغي أن تقع العمليات وتتوفر الأدوات الناقلة للمعاني ونشرها بين البشر. وقد يقع هجوم من قبل أي من الأنساق الأيديولوجية الأخري وقد يقع صراع بين النسق المهاجم والنسق الحالي إلا أنه يبقي في النهاية نسق واحد فقط قادر علي البقاء. في هذا الاطار يمكن ان يقع تداخل واندماج بين الانساق الإيديولوجية الصغيرة والمتجاورة لتشكل نسقا حضاريا شاملا. فإذا تكشفت الأنساق الأيديولوجية والحضارية من خلال الهجوم عليها فإنها تصبح أكثر عمومية وتلقائية في حالة انتصارها وبقائها. بالاضافة إلى ذلك فإن الأنساق العظيمة هي النساق التي تصادف الحظ السعيد وتنمو لديها العبقرية الفذة التي تضخ الأبداع في عروقها.

وتوجد بعض النساق الفوقية العظيمة التي ظهرت، وقامت نتيجة لتحقيقها التكامل بيم كم هائل من العناصر أو المبادئ الموجودة في عصرها. في هذا الاطار يستند النسق الأشمل من الأنساق الفوقية للحضارة إلى أكثر المبادئ الوجودية Ontological Principles عمومية، أعني المبادئ التي تحدد الطبيعة النهائية للحق والقيم. ومن الناحية الوجودية فليست هناك مفاهيم أكثر استيعابا من التحديات الثلاث التالية للطبيعة النهائية للحقيقة أو القيمة وهي (أ) أن الحقيقة الصادقة والقيمة الصحيحة ذات طبيعة محسوسة في العادة، وهو ما يشكل المقدمة الرئيسية للأنساق الفوق – حسية (ب) أن الحقيقة والقيمة الصحيحة تتشكل في النطاق فوق الحسي أو الله أو ما هو فوق عقلاني، أو البرهما Brah-man أو الروح Atman أو الكاو Tao أو أي نظير ذلك، وهي المقدمة الأساسية للنسق فوق الروحي. (ج) أن القيمة والحقيقة الصادقة الكاملة تتكشف في اتجاهات عديدة بصورة لا نهائية، فهي في جانب منها فوق حسية Supersensory وفوق عقلانية Superrational، وفي جانب أخر هي عقلانية وحسية، وهو ما يشكل مقدمة أو أساس النسق الفوقي المثالي Idealistic Suoer Systen.

وحول هذه التحديات المحورية الثلاثة للحقيقة وتصور القيم تنتظم غالبية أو معظم ظواهر الثقافة الأخري بأسلوب عضوي صحيح كظواهر الدين والفن والدولة والسياسة والفلسفة والنقد، وفي الحقيقة كل جوانب الثقافة والمجتمع اللانساني. وفضلاً عن ذلك فإننا نجد النسق الفوقي مثل الكائن العضوي قد يواجه الأنهيار، وذلك يمكن أن يحدث كمياً بدون أن يحدث هدر كيفي. وقد يحدث كيفيا وليس كميا، وقد ينهار كيفيا وكميا في ذات الوقت. وقد يصل انهياره إلى مستوي الموت والتجحر. وتميل الأنساق الفوقية الثلاثة العظيمة إلى أن تتحرك بصورة متتابعة بين الأشكال الحسية والأشكال الروحية. بينما يدرك النسق الفوقي المثالي باعتباره نسقا وسيطا (٥٥).

رابعا : التنظير الحضاري في القرن التاسع عشر، تقييم عام : أذا تأملنا التنظير المتعلق بالحضارة في القرن التاسع فسوف نجده قد تميز بعدة خصائص أساسية نعرض لبعضها فيما يلي :

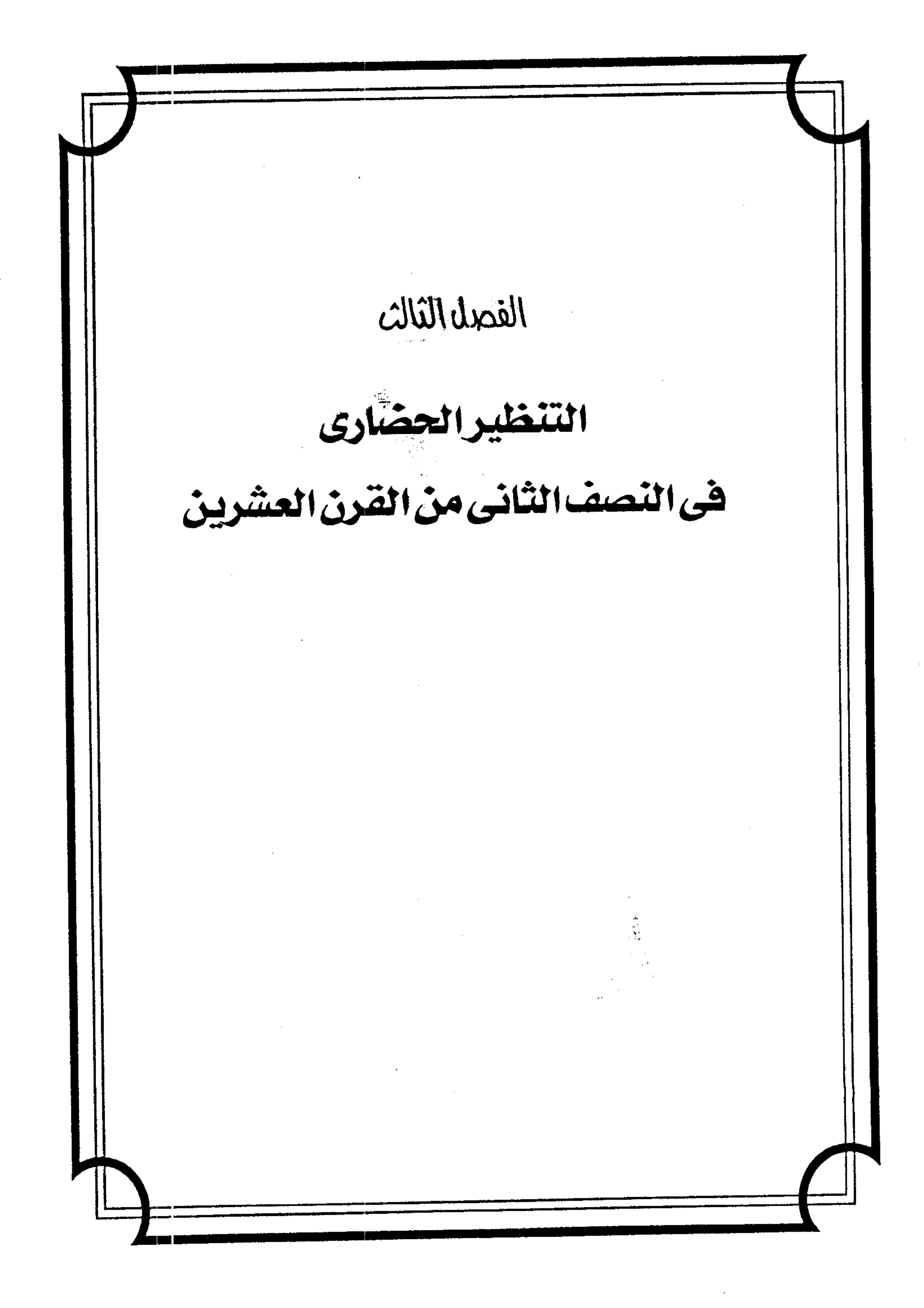
١. اذ يشير تأمل التنظير الذي قدم خلال هذه الفترة إلى تأثره إلى حد كبير بالتصور العضوي للمجتمع. فغالبية النظريات التي قدمت خلال هذا القرن عقدت مماثلة بين الحضارة من ناحية وبين الكائن العضوي من ناحية ثانية. والحضارة تنشأ وتزدهر وتواجه الأنهيار والفناء كما عند شبنجلر، وأن الحضارة قد يتوقف نموها كما عند الشعوب البدائية، وقد يطرد نموها لتصبح حضارات إنسانية عظيمة كما ذهب توينبي. كما أن لكل حضارة طبيعة محددة كما هي الحال بالنسبة للكائن العضوي كما أكد سروكين. ويضاف إلى ذلك تردد مصطلحات مثل النمو، النشأة، التهجين، الحس، العقل، بحيث تعتبر جميعها مؤشرات تؤكد النظرية العضوية إلى الحضارة. وذلك لأن القرن التاسع عشر كان القرن الذي ازدهر فيه كما من الفكر التطوري الكلي الذي ينظر إلى المجتمعات الأنسانية، والكيانات الاجتماعية والثقافية المختلفة بإعتبارها تتطور في مليتها من مرحلة إلى مرحلة أخري متضافراً مع التصور العضوي للمجتمع الذي إزدهر خلال هذه الفترة كذلك.

٢. إدراك المفكرون أن ثمة حضارات عديدة علي الساحة العالمية. غير أن إدراكهم لهذ الحضارات كان إدراكا موضوعيا وسلاميا في نفس الوقت. ونقصد بأنه كان ادراكا موضوعيا أن المفكر لم يكن ينظر إلى الحضارات الأخري بالنظر إلى مرجعية الحضارة الأوربية، وهو السلوك الذي جسدته نزعة التمركز حول الذات. بل نظر المفكرون إلى كل حضارة بإعتبار انها تمتلك منطقها وعقلانيتها الخاصة وأساليبها في التكيف والأستمرار. وهو الأمر الذي شكل أساساً للدعوة التي تؤكد علي أن تباين الحضارات لا يعني صراعها بل قد يعني تكاملها طالما أن هناك أعتراف متبادل بين أعضاء كل

حضارة بالحضارات الأخري.وأن الحضارات جميعها علي قدم المساواة طالما أن كل حضارة قد قدمت أسهاما محدداً ساعد علي تطور الحياة الانسانية. حتي الحضارات التي أندثرت وتركت بعض بقاياها المادية كانت دائما موضع إعتبار وتبجيل.

٣. التعامل مع مسألة الحضارة من خلال تطوير نماذج نظرية تطبق علي الحضارات كلها دون استثناء، فالحضارات جميعها تنشأ وتزدهر وتأفل عند شبنجلر، أو أن أي حضارة تتطور استجابة للتحديات التي تواجه الحضارة كما ذهب أرنولد توينبي، وأن الحضارات جميعها بها جوانب روحية وحسية ومثالية كما ذهب عالم الاجتماع بيترم سروكين. حيث كان أدرك وتحليل الحضارات المختلفة يتم استناداً إلى النظرية التي طورها المفكر حتي يمكنه تقديم تقييم موضوعي للحضارة. لقد تركز اهتمام مفكري الحضارات خلال هذه المرحلة حول أكتشاف القوانين الضابطة لنشأة الحضارات وتطورها وانهيارها. كما كان لديهم اتفاق علي أن كل حضارة من الحضارات، بخاصة الحضارات الانسانية العظيمة قد قدمت اسهامات واضحة علي صعيد التقدم الأنساني.

٤. اتساقا مع التصور الكلي العضوي نظر المفكرون خلال هذه الفترة إلى الحضارات باعتبار ان كل حضارة تشكل كلا متكاملاً، يتشكل من مجموعة من المتغيرات التي يؤدي تفاعلها إلى قيام الحضارة واستمرار دوامها. وعلي هذا النحو فإننا نجد أن كل حضارة من الحضارات فيها جوانبها الروحية التي تتضمن المثل والمعاني التي تشكل الطاقة الدافعة لسلوكيات البشر التي تساعد علي بناء الجوانب المادية، التي تعني الفنون والتجهيزات المادية التي طورتها الحضارة حتي تستطيع التكيف بواسطتها مع السياق المحيط. غير أن الوزن النسبي لكل من هذه المتغيرات "المادية والروحية" يختلف من حضارة إلى أخري، وفي بناء الحضارة الواحدة من مرحلة إلى أخري.



الفصل الثالث

التنظير الحضارى في النصف الثانى من القرن العشرين

الفصل الثالث

التنظير الحضاري في النصف الثاني من القرن العشرين

تمهيد

مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين أدرك المفكرون أن العالم الذي نعيش فيه علي أبواب عصر جديد. فقد تفجرت الحرب العالمية الأولي والثانية. وخرج منها الغرب "أوربا والولايات المتحدة" منتصراً ومزهوا بنفسه. غير انـــه في اثناء الحروب وفي أعقابها تفاعل مع أبناء الحضارات الآخري مـــن خـــلال بعدين، الأول أن غالبية وقائع الحرب وأحداثها، بخاصة الحرب العالمية الثانيـــة دارت رحاها علي أرض الجنوب أو علي ساحة الحضارات الأخري. وأن أبناء هذه الحضارات شاركوا في صراعات الحضارة الغربية وساعدوا علـــي حـــسم نتائجها لصالح الأطراف المنتصرة. والثاني أن غالبية مجتمعات الجنوب التـــي شارك أبناءها في الحرب التي دارت علي ساحتها بدأت تطالب بالأستقلال بعـــد انتهاء الحرب. وحينما تلكأت المجتمعات الغربية في الاستجابة لـــذلك تفجـــرت حروب الاستقلال، حيث قاد أبناء المستعمرات صراعاً حـــاداً للحـــصول علـــي استقلال مجتمعاتهم حتي حصلوا عليه. وأدركت المجتمعات الغربية المـــستعمرة ضرورة أن تتشكل نوعية حياة المستعمرات وفق نوعية الحياة الغربيـــة. بـــذلك تضمن ولاءها في عالم بدأ يشهد صراعاً جديداً بين حلفاء الأمس "الراســـماليون والاشتراكيون"، حتي يمكن أن يؤمن مصادر المادة الخام لكي يستمر تدفقها إلى معاقل الصناعة الغربية.

إرتباطا بذلك بدأ الغرب يدرك أن ثمة حضارات أخـــري علـــي الـــصعيد العالمي برغم انتصاره لا تخضع له، وأحيانا تنتصر علي حضارته وثقافته فيأخذ منها ثقافيا بعض مفرداتها. وقد برز هذا الادراك مصاحبا لجهود التبشير الـــذي بدأت مع حركة الاستعمار، لدفع أبناء مجتمعات الجنوب الـــذين يـــدين أغلـــبهم بديانات وثنية بإتجاه اعتناق المسيحية، وحققت بعثات التبشير نجاحات كبيرة في هذا الاتجاه. غير أن جهودها كانت تتعثر بصورة شبه كاملة حينما يكون التبشير علي أرض حضارية، ويكون نجاح التبشير مستحيلاً حينما يكون علـــي أرض حضارية لها مبادئها وقاعدتها الدينية وأبرزها الحضارة الإســـلامية. فـــي هـــذا الاطار سعت النخبة الغربية المثقفة لاستكشاف أسباب أستحالة انتشار المـــسيحية بين أبناء الحضارة الإسلامية، بحيث دفع ذلك إلى قيام جهد غربي مـــسيحي ذو ثلاثة أبعاد.

ويتمثل البعد الأول في فكر الأستشراق الذي صاحب بداياته جهود التبـــشير السابقة المصاحبة بدورها للمرحلة الاستعمارية وربما كانت سابقة عليها حيـــث أدرك مفكروا الغرب أن الإسلام يشكل نسقا دينيا متماســـكا، بـــسيطا وكـــاملاً وواضح المبادئ لكل من يريد ان يتعرف عليه. ثم أنه يشكل نظرية في المجتمع ويضع نموذجاً للمجتمع المسلم ولسلوك الانسان المـــسلم. بعـــض المستـــشرقين امتلكوا قدراً من الموضوعية فأنصفوا الإسلام بينما تحيز البعض الآخر ضـــده وسخطوا عليه، ورأوا فيه أنه يمتلك طاقة لبناء حضارة قويـــة وأمـــة عظيمـــة. حضارة تمتلك توازنا يفرض علي الانسان المسلم أن يهتم بدينه كأنما يعيش أبداً ويهتم بآخرته كأنما يموت غدا. كما أدرك الغرب إمتلاك الإســـلام لكثيـــر مـــن موارد القوة، وكان ذلك أحد إنجازات الاستشراق تاريخيا. وقد استهدفت الجهود التي تمت في اطار البعد الثاني العمل علي تصفية بعض الجيوب الإسلامية التي أخترقت القارة الأوربية ولو أدي ذلك إلى أستخدام القوة المخزية لتحقيق ذلـــك.

حدث ذلك في تصفية الجيب الإسلامي في الأندلس(٥٦). حيث فرض التنصر علي المسلمين ومن لم يتنصر قتل أو طرد، وحدث مرة ثانية في محاولة تصفية الجيب الإسلامي في قلب أوربا خلال الصراع الداخلي اليوغسلافي، حيث مورست أكثر الأساليب بربرية في تصفية هذا الجيب الحضاري كالمذابح الجماعية، والدفن الجماعي للبشر أحياء. أو بقر بطون الأمهات لقتل أجنة إسلامية قد تولد.

واتجهت الجهود في اطار البعد الثالث إلى أخضاع المجتمعات التي تستظل بمظلة الحضارة العربية الإسلامية بالعمل علي استمرار ضعفها، وتهيئة للظروف التي تساعد علي سلب خاماتها كما هو حادث بالنسبة لاستلاب خام البترول من الأرض العربية، أو حرمانها من إمتلاك الطاقة الذرية ومحاصرة باكستان، أو أن تغرس إسرائيل في الأرض العربية لتصبح وسيلته في أستخدام القوة اذا حاولت هذه المجتمعات الخروج علي طاعته. بالاضافة إلى ذلك يعمل الغرب دائماً علي تقليم أظافر القوة العربية الإسلامية حيثما ظهرت. حدث ذلك حينما فرضت القوي الأوربية تاريخيا حدوداً معينة علي قوة جيش محمد علي باشا بعد هزيمته في موقعة نفارين حتي لا تكون هناك قوة إسلامية قادرة علي التهديد. كما حدث ذلك أيضا في تقنين وحجم القوي في سيناء المصرية استناداً إلى اتفاقيات كامب ديفيد، مرة أخري حتي لا تقوم لقوة إسلامية قائمه. وانتهي الامر في النهاية إلى أحتلال العراق والسعي لتمزيق بنائه اربا بعد أن كان يمتلك أسباب القوة، إذ يظل الغرب يقظا ليحافظ علي عدم امتلاك الحضارة العربية الإسلامية أسباب القوة، لاحتمال أن تتجه القوة بعد ذلك إلى الاتساع.

أولا : تحولات النصف الثاني من الألفية الثانية :

علي هذا النحو أصبح النصف الثاني من القرن العشرين مساحة لتواجد حضارات عديدة بعضها في حالة صراع قائم بينما البعض الآخر من الممكن أن يصبح طرفا في صراع محتمل. فقد قامت علي الساحة الكتلة الأشتراكية بصفتها كتلة حضارية تستند إلى بعض عناصر الحضارة السلافية في أعقاب الحرب العالمية الأولي. وبدأت تدخل في صراع فعلي حول المصالح والهيمنة علي مناطق النفوذ، مع الحضارة الراسمالية الغربية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وهي الفترة التي عرفت بفترة إندلاع الحرب الباردة. ثم مع الحضارة الإسلامية التي تسعي شعوبها إلى تحديث مجتمعاتها بسبب أن لديها ثروة الطاقة والأسواق الواسعة التي يطمع فيها الغرب، وهو ما يجعل الصراع مع هذه الحضارة محتمل. إلى جانب الحضارة الكنفشيوسيه، حيث تسعي الصين وهي كتلة حضارية هائلة لطرق أبواب التحديث وامتلاك القوة الذي سوف يشكل إحتمالية امتلاكها لها قيداً علي مصالح وحركة الحضارة الرأسمالية الغربية، ومن ثم فالصراع معها ممكن أو محتمل وأن كان مؤجلاً، وكذلك الحال بالنسبة للحضارة الهندوكية وحضارات أمريكا اللاتينية. (٥٧) وأصبح من الواضح بروز حقيقتة، الأولي أن الحضارة الرأسمالية الغربية هي الطرف الدائم في الصراعات القائمة والمحتملة، والثانية أنه يوجد صراع قائم فعلاً بين الحضارة الاشتراكية والحضارة الرأسمالية، باعتبارها تمتلك مصادر القوة العسكرية المتناظرة أو المتساوية، إضافة إلى صراع محتمل مع الحضارة الإسلامية لأن شعوبها تمتلك مصادر الطاقة، والأسواق والمواقع الاستراتيجي، وكلها موارد تحتاجها الرأسمالية الغربية. خاصة أن أصحاب هذه الحضارة علي حالة من الضعف في الوقت الحاضر، ومن ثم فإن عليها _ أي الحضارة الغربية – أن تدخل هذه

الصراعات الواحد تلو الآخر، كما عليها أن تحرص علي أن تخرج من كل هذه الصراعات منتصرة.

وقد شغل الصراع بين الكتلة أو الحضارة الاشتراكية والحضارة الغربية الرأسمالية- وهو الصراع الأول - الفترة التي بدأت مع نهاية الحرب العالمية وامتدت حتي إنهيار الاتحاد السوفيتي مع بداية العقد الأخير من القرن العشرين. وقد بدأ هذا الصراع مع قيام الكتلة الاشتراكية انطلاق من ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ في أعقاب الحرب العالمية الأولي مستندة إلى المبادئ الماركسية. اللينينية باعتبارها تشكل البعد العقيدي لهذه الحضارة، مضافة إليها بعض عناصر الحضارة السلافية. وقد سعت هذه الكتلة الحضارية إلى إمتلاك أسباب القوة وقد نجحت في ذلك حينما سبقت الغرب بإطلاق أول قمر صناعي يسبح في فضاء العالم. كما شرعت الكتله الاشتراكية في تاسيس تحالفات مع مجتمعات العالم الثالث في سعي لتدعيم قوتها ووجودهما علي الصعيد العالمي، وذلك لتطويق الكتلة الرأسمالية الغربية وفرض القيود علي حركتها. ذلك يعني أنه مع قيام الاتحاد السوفيتى بدأ الغرب يتعرف على نفسه من خلال الآخر الشيوعى الذى أصبح نقيضاً له على الصعيد الاقتصادى، والاجتماعى والثقافى.[٥٠٨] لقد كانت المنطلقات الفكرية والمذهبية والتاريخية لفكرة الصراع، هى التى شكلت الأساس الذى قامت عليه العلاقات الدولية فى فترة الحرب الباردة. واحتدم نتيجة لهذا التناقض الحضارى صراع ظاهر وخفى ومحموم بين القطبين الكبيرين امتدت مضاعفاته وآثاره وانعكاساته إلى معظم أنحاء العالم. حيث كان كل قطب - كطرف في الصراع الحضاري - يعمل جهده من أجل تأجيج الصراع فى الساحة الدولية، من منطلق أنه كلما احتدم الصراع انفتحت الآفاق أمامه إلى توسيع رقعة نفوذه السياسى والاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافى. وقد استنزف هذا الصراع المحتدم طاقات وإمكانيات وجهود كثيرة وتسبب فى ضياع

فرص عديدة كانت كفيلة بتصحيح مسار العلاقات الدولية والإسهام بجدية في استقرار الأوضاع العالمية وفى استتباب الأمن والسلام الدوليين.[٥٩] ومع بداية العقد الأخير من القرن العشرين سقطت الكتلة السوفيتية وسقطت معها حضارتها التى أصيبت بالفصام أو انفصال مستوياتها، فلا المبادئ الحضارية الاشتراكية التى شكلت المظلة التى أظلت ثقافات مجتمعات الاتحاد السوفيتى قد تم استيعابها فى بناء الشعوب لينصهروا ويتجانسوا باعتبارهم أبناء حضارة واحدة، ولا ثقافة الشعوب استطاعت ضخ الحيوية فى بناء الحضارة الاشتراكية الشاملة. ومن ثم انهارت الحضارة السوفيتية وأنهت أحد فصول الصراع الحضارى الذى امتدت سنواته من الحرب العالمية الثانية وحتى بداية عقد التسعينيات وهى الفترة التى عرفت بفترة الحرب الباردة. وفي أثناء صراع الحضارة الغربية مع الحضارة الاشتراكية السوفيتية استعانت بإمكانيات الحضارة الإسلامية للانتصار في الصراع. فقد جندت أبناء هذه الحضارة علي أساس عقيدي لمحاربة القوات السوفيتية في أفغانستان إضافة إلى الاستمرار في شحن العواطف الدينية لدى المسلمين ضد الالحاد الشيوعي لتشكل بذلك حائطا معنويا قويا في مواجهة المد الاشتراكي إلى مجتمعات الحضارة الإسلامية، ومن ثم نجحت في تقليص قوة اندفاعه.

لقد أدى انهيار الكتلة الاشتراكية الحضارية إلى أن قفزت الحضارة الرأسمالية الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية إلى قمة تدرج القوة الحضارى العالمى. وبذلك دخل العالم مرحلة حضارية جديدة، مرحلة القوة العالمية العظمي الواحدة التي تربعت علي عرش العالم، والتى لا تدانيها من حيث إمكانياتها الاقتصادية والعسكرية والتقنية والإعلامية قوة أخرى. ارتباطاً بذلك بدأت تظهر معالم نظام عالمى جديد ما تزال تفاصيله موضع جدل داخل الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها. حيث اتجه كثير من أعضاء النخبة الأمريكية

إلى تبنى الدعوة إلى الإنفرادية، وغالبيتهم من "المحافظين الجدد" الـذين يـرون ضرورة أن تستبد الولايات المتحدة باتخاذ ما تراه من قرارات وسياسات تحقـق مصالحها، وتعمل على نشر قيمها من غير تقيد بأعراف ولا قوانين دولية ولا بمؤسسات عالمية كالأمم المتحدة. وذلك باعتبارهم القوة الاقتصادية والعسكرية الكبرى التى لا تدانيها قوة فى العالم. تأكيدا لـذلك أن ميزانيـة وزارة الـدفاع الأمريكية هى أكبر من مجموع ميزانيات الدول الاثنين والعشرين التـى تـأتى بعدها. يقول هذا الفريق أنه بحلول عام خمسة بعد الألفين ستكون ميزانية الدفاع الأمريكية أكبر من كل ميزانيات الدفاع فى العالم بجملته. كما يؤكدون أن قواعد النظام العالمي الحالية هى قواعد نظام قديم، ومن ثم فعلى الولايات المتحـدة أن تعمل من خارج هذه القواعد إن لم تحاول وضع قواعد جديدة ما دامت هى التى تتولى بقوتها تشكيل هذا العالم.

غير انه قبل انهيار حضارة الكتلة الاشتراكية، وإدراك الغرب أن الـوهن والضعف بدا يدب في أوصالها، لم يضيع الوقت وبدأت الحضارة الغربيـة فـي الأعداد لصراع جديد، من خلال التحرش مع الحضارة الإسلامية، لتحول بـذلك الصراع الذي كان قديما إلى صراع قائم في الحاضر. بدأ التحـرش الأول مـع الجيب السلامي البعيد في أوربا، حيث انفجر الصراع علي ساحة يوغسلافيا بعد وفاة الرئيس "تيتو"، ووقف الغرب وعلي رأسة الولايات المتحدة متفرجـا علـي الصرب "الذين قاموا بدفن المسلمين أحياء وحماعيا في مقابر جماعيـة، وبقـر بطون الأمهات حتي لا يلدوا مسلمين جددو انتهاك الشرف المـسلم بإغتـصاب الأناث عنوة وجماعيا وعلي مشهد من العالم، ناهيك عن تجويع الاطفال وافتقاد الأمن والكرامة، والعالم الإسلامي ضعيف لا يتحرك ساكنا. وأنطلـق التحـرش الثاني علي الأرض الأفغانية، حيث واجهة حركة طالبان المتحالفة مع حركـة تنظيم القاعدة بقيادة "اسامة بن لادن" وهي الحركات التي تحالفـت معهـا فـي

الصراع مع الاتحاد السوفيتي، وأحلت قوي الحضارة الغربية شرعية علمانيـــة بالقوة محل الشرعية السلامية الدينية التي كانت قائمة. وقامت بمحاصرة التيـــار الإسلامي المتطرف متحالفة مع بعض الأنظمة السياسية الإسلامية. وإذا كانـــت هناك تيارات إسلامية قد إسقاطها كما حدث في الجزائر والسودان، إضافة إلـــى الجهود الدائمة لحصار إيران باعتبارها مجتمعا إسلامياً يمتلك بعـــض أســـباب القوة. وقد قام الغرب بتدمير تفجر حرب الخليج الأولي بـــين العـــراق وإيـــران لينهك بذلك القوة العربية والإسلامية ويبدد طاقتها. كما قام الغرب ايضا بتـــدبير حرب الخليج الثانية لتكون سببا جوهريا لقيام حرب الخليج الثالثة.

وقد كان من الطبيعي أن تسنثار العواطف الإسلامية، خاصة أن الأنظمـــة العربية الإسلامية لم تتخذ موقفا جادا في مواجهة هذه التحرشات. وتجلي نـــوع من الاحتقان الإسلامي بسبب هذه الاعتداءات والتحرشـــات الغربيـــة المتتابعـــة اضافة الجرح الفلسطيني الغائر والمستمر والذي يؤلم الجسد الإسلامي، وهو ما يعني أن الغرب يبارك أغتصاب فلسطين، وهي أرض عربية إسلامية.وفي يوم ١١ سبتمبر سنه ٢٠٠١ وقعة حادثه انهيار المركز التجاري بنيويـــورك بفعـــل جماعات أرهابية، استخدمت تقنيات عالية في الهجوم. ونسبها الغرب مـــن أول لحظة وقبل أستكمال التحقيقات لجماعات إسلامية وعربية. وبدأت التـــصريحات الغاضبة تصدر لتتحدث عن الإرهاب الإسلامي، وشخصها بعض قادة الغـــرب بأن ما حدث قد يستدعي القيام بحرب صليبية جديدة. وبدأت القوة المعبرة عـــن الحضارة الغربية تتبني بعض الإجراءات التي تتـــضمن غـــضبا علـــي أبنـــاء الحضارة الإسلامية. فقد بدأت بالتضيق علي المسلمين في الولايـــات المتحـــدة الأمريكية والدول الغربية عموما حتي قيام فرنسا بإصدار قانون يمنـــع إرتـــداء الحجاب الإسلامي في المدارس ومجالات العمل. [٦٠] اضافة إلى القيام بحـــرب الخليج الثالثة واحتلال العراق تحت زرائع واهية حتي تصبح قريبة من آبـــار

النفط وتبسط السيطرة الكاملة علي حقولها إلى جانب أعطاء الـضوء الأخـضر لإسرائيل كي تعربد كما تريد في الأرض الفلسطينية. إضافة إلى التدنسيق علي جماعات التيار الإسلامي حتي ولو لم يكن متطرفـا. واخيـراً مطالبـة العـالم الإسلامي بأعادة تشكيل الإسلام بما لا يخلق معرضة مضادة للسيطرة علي دار الإسلام. اضافة إلى تخويف أنظمته السياسية بعصا الاصلاح السياسي. في هـذا السياق ظهرت نظريات فرنسواكوياماو صمويل حبنتنختون لتحدد طبيعة العلاقة. أو الصراع بين الحضارة الرأسمالية الغربية وبين الحضارات الأخري وبخاصة الحضارة الإسلامية.

في زهوة الأنتصار والتربع علي قمة النظام العالمي اعتقد عامة الأمريكيين أنهم أصحاب رسالة عالمية، وأن عليهم أن يصلحوا أحوال الحضارات الأخري التي اعتقدوا أنها مهددة لهم. وأن هذه رسالتهم التي هى رسالة الحرية، فهـم لا يرون أنفسهم أقوى الدولة فقط، وإنما هم أخيرها كذلك فهم يزعمون أنهم أكثـر الناس تديناً وأشد تمسكاً بالأخلاق الفاضلة، نظامهم السياسى كما يرون أحـسن نظام، ودستورهم أحسن وثيقة كتبت فى التاريخ، ونظامهم الاقتـصادى أنجـح نظام، وقضاؤهم أعدل قضاء، ونظامهم التعليمى أرشد نظام، ونظامهم الـصحى أفيد نظام، فالأمريكان كما قال أحدهم "هم حداة البشرية فى سيرها نحو الكمال". يؤكد ذلك خطاب الرئيس جورج بوش فى خريجى كلية "وست بونت" العسكرية بقوله : "أن أمريكا تدافع عن الحرية، وأن العلم الأمريكى حينما يرفع فلن يكون رمزاً لقوتنا فحسب ولكن للحرية. وقد كان هدفنا دائماً أكبر من مجرد الدفاع عن أنفسنا، إننا كلما حاربنا فإنما نحارب من أجل سلام عادل، سلام يختار الحريـة الإنسانية وسندافع عن السلام ضد تهديدات الإرهابيين والحكام المستبدين. إننـا نريد لغيرنا ما نريده لأنفسنا، أمن من العنف، جني لخيرات الحرية، والأمل فى حياة أفضل، أن محاربة الإرهاب تحتاج إلى صبر، ولكنها تحتاج أيـضاً إلـى

هدف أخلاقي. إن أعداءنا اليوم كما كانوا أيام الحرب الباردة شموليون – يقصد الإسلام – يؤمنون بمبدأ القوة التى لا مكان فيها للعـزة الإنـسانية. لقـد كـان الوضوح الأخلاقى ضرورى فى انتصارنا فى الحرب الباردة، قد يرى الـبعض أنه ليس من الدبلوماسية أن نتحدث عن الحق والباطل، لكننى أختلف معهم، نعم أن الظروف المختلفة تقتضى وسائل مختلفة لكنها لا تقتضى أخلاقاً مختلفـة، أن الحقيقة الخلقية واحدة فى كل ثقافة وفى كل زمان وفى كـل مكـان، أن هنـاك صراعاً بين الخير والشر، وستسمى أمريكا الشر باسمه"(٦١). في هذا الاطار قدم الفكر الغربي تنظيراً حضاريا له طبيعة صراعية يسعي لتبرير الصراع القـائم بين الحضارة الغربية والحضارات الشرقية وهو التنظير الذي تعرض لـبعض نماذجه في الصفحات التاليه :

ثانيا : نظرية فرنسوا فوكوياما حول نهاية التاريخ.حسبما أشرت شكل انهيـار الاتحاد السوفيتى مع بداية عقد التسعينات لحظة فارقة فى التـاريخ الإنـسانى. حيث أدى اختفاء قوة عالمية واستراتيجية إلى تغيرات هائلة فى النظام العالمى، أبرزها أن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت بدون حرب هى القوة العظمـى فى العالم والمسيطرة على مقاديره، وأصبح على بقية دول العالم الثانى والثالـث التى كانت متحالفة مع الاتحاد السوفيتي أو تستظل بمظلته أن تجد نفسها – وهى عاجزة حتماً عن مواجهة القوة العظمى فى العالم – تتحول نحو الارتباط بهـا. وبدا الأمر وكأن جدل القوى العالمية الذى كان دائراً فى فترة الحـرب البـاردة والذي إعتقد البعض أنه قد انتهى والي الأبد، وإستنادا إلى أن الجدل عند ماركس ينتهى عندما يبدأ التاريخ الحقيقى الذى يتحدد بقيام المجتمـع الـشيوعى الـذى يتأسس استناداً إلى انتصار البروليتاريا فى الصراع الطبقى الذى لا يصبح لـه وجود فى المجتمع الشيوعى الجديد، ألهمت، هذه الفكرة الماركسية والتطـورات الواقعية – التى حدثت علي صعيد النظام العالمي بانتهاء صراع الحرب الباردة

وانهيار الاتحاد السوفيتي كطرف في الصراع - المفكر الأوروبي الياباني الأصل فرنسوا فوكوياما Francis Fukuyama الذى قدم نظرية عن نهاية التاريخ وهي الفكرة التى تؤكد على أن هذه النهاية هى نتيجة مرتبة على انتصار النظام الرأسمالى، وتدعم نظرية فوكوياما وجهة النظر التى تؤكد على قبول النظام العالمى بجملة مجتمعاته في الغالب لنموذج الاقتصاد الرأسمالى. وهو القبول الذى يعنى نهاية الصراع التاريخى الذى اشتد أواره أبان الحرب الباردة وهدد بقيام حرب عالمية ثالثة. وما دامت الرأسمالية قد انتصرت بانهيار الاتحاد السوفيتى كطرف مقابل فى هذا الصراع التاريخى، فما على الولايات المتحدة الآن سوى أن تنعم بالسعادة والراحة والإحساس بالأمن. غير أن هذه النظرية لم تلقى القبول ولا المصداقية العلمية. فهي لم تلق القبول لأن انتصار المعسكر الرأسمالى لم يكن استناداً إلى القوة التى امتلكتها الولايات المتحدة، بل تحقق بسبب انهيار النظام السوفيتى الاشتراكى لظروف داخلية بحتة.[٦٢] ومن ناحية ثانية فإن الاتحاد السوفيتى وإن كان قد تعايش مع الانهيار لعدة سنوات، إلا أنه بدأ الآن يتحرك على الصعيد العالمى ليتحالف مع قوى عالمية متنامية من مجتمعات الجنوب مثل الصين والهند وإيران. الأمر الذي يعني اننا اذا تأملنا الأمر فسوف نجد أن الوضع الذي تحقق في عقد التسعينيات لم يضع نهاية حتمية ونهائية للصراع، وأن ما حدث هو نهاية احدي مراحل الصراع وجاري الاعداد لمرحلة صراعية جديدة، وان الصراع لم ينتهي كلية. بالاضافة إلى ذلك فقد جاءت نظرية فوكوياما في نشوة سنوات أنتصار الغرب بسبب التغيرات السلبية التي طرأت علي الكتلة الاشتراكية والتي أودت بها كلية مع بداية العقد الأخير من القرن العشرين. وهو الانتصار الذي أدركت معه القوي الغربية أنها لم تكن سببه الرئيسي، وأن انتصارها كان مجانيا وبلا تكلفه، كما أدركت أيضا أن احتمالات الصراع ما زالت قائمة. لذلك لم تستقبل نظرية فوكوياما بصورة

ايجابية لأن البعض اعتبرها تخديراً للمعسكر الغربي ودعوة له بـالخلود إلـى الراحة والسكون في الوقت الذي لاتؤكد الشواهد ذلك. بالاضافة إلى ذلـك فقـد اعتقد فوكوياما ان جدل التاريخ الحضاري قد انتهي وأن الحضارات قد قـدمت أفضل ما عندها للانسانية وأن تكشف الحقيقة الحضارية للعـالم يعنـي ان كـل حضارة شغلت فترة تاريخية معينة وسـاحة جغرافيـة محـددة. وان خبراتهـا الحضارية وأسهامها قد سلمته للحضارة التالية لها ومن ثم فقد تسلمت الحضارة الغربية الرأسمالية الآن خبرة التطور الحضاري العالمي طيلة التاريخ الانساني. وبذلك فالمبادئ التي تقوم عليها هذه الحضارة هي بحق مبـادئ أصـبحت ذات طبيعة انسانية وليست ذات طبيعة غربية أمريكية فقط. لذلك فتبني أساليب هذه الحضارة، والتسليم بمضامينها القيمية أصبح ضروريا وملزما للبشر في نظامنـا العالمي المعاصر.

ثالثا : نظرية هنتنجتون في صراع الحضارات :

قدم هنتنجتون نظريته عن صراع الحضارات التي عرضت خطوطها العامـة في البداية في مجلة "فورن أفيرزForeign Affairs" عـام ١٩٩٣. واسـتجابة لذلك وقعت ردود افعال واستجابات كثيره، الأمر الذي دفعه إلى أعادة كتابتها في كتاب كامل بعنوان "صدام الحضارات وأعادة تشكيل النظام العالمي". حيث لاقي الكتاب والنظرية التي يضمها اهتماما كبيراً في الأوساط الفكرية والشعبية علـي السواء. ونحن اذا تأملنا نظرية هنتنجتون فسوف نجد أنها نتاج لثلاثه ظـروف هامة. حيث يتمثل الظرف الاول في المكانه التي شغلتها الولايات المتحدة علـي قمة تدرج القوة العالمي. وأن شغلها لمكانه القمة كان نتيجـة لإنهيـار الاتحـاد السوفيتي بعد أن خاضت صراعاً بارداً معه طيلة خمسة عقود كاملة. واذا كانت الولايات المتحدة قد خرجت من الصراع منتصرة، بـرغم أن هـذا الانتـصار

مجاني، فإنها بدأت تتصرف من منطق القوة العظمي المسيطرة علـــي النظـــام العالمي. ومن ثم رأت ضرورة أن تتحمل تصفية الصراعات المحتملـــة علـــي الصعيد العالمي. سواء كانت هذه الصراعات بين جماعات داخل دول أو بـــين مجتمعات أو دول وبعضها البعض أو حتي بين حضارات. لقد أرادت الولايـــات المتحدة تأسيس نظام عالمي هادئ يتيح لها تحقيق مصالحا ودوام سيطرتها(٦٣).

ويتمثل الظرف الثاني في مظاهر القلق والتوتر الداخلي داخـــل الولايـــات المتحدة ذاتها، إذ يضم مجتمع الولايات المتحدة الأمريكية جماعات أثنية عديدة، تكيفت بآليات متنوعة مع مقتضيات الواقع الأمريكي غير أنه برغم المثل المعلنة في الثقافة الأمريكية وهي المثل التي تؤكد علي الديموقراطية والمـــساواة فـــي الفرص، إلا ان ما يحصل عليه بعض الافراد أو الجماعات يتناقص مـــع هـــذه المثل المعلنة الأمر الذي يخلق حالة من عدم الرضاء من قبل جماعات كثيرة في المجتمع، وهي الحالة التي ترجع إلى الانفصال بين المثـــل والقـــيم والمبـــادئ المعلنة، وبين ما يمارس في الواقع، حيث يكون ذلك سببا في توليد كثيـــر مـــن مظاهر التوتر والقلق(٦٤). يضاف إلى ذلك ان الحضارة الغربية بصورة عامـــة والأمريكية بصورة خاصة حققت انجازات هائلة علي صعيد التطور او التقـــدم المادي غير أنها تعاني من كثير من المشكلات التي بدأت تظهر علـــي الجانـــب الروحي والمعنوي، الامر الذي دفع إلى ارتفاع مستويات التوتر والقلق النـــاتج عن ضعف الجوانب الروحية، مما أدي إلى تفجر كثيراً مـــن الانحرافـــات ذات الطابع الاخلاقي. كالغتصاب والتحرش الجنسي بالقوة كما نجد مؤشراً لـــه فـــب ارتفاع معدلات الجريمة حتي القتل العشوائي عنـــد الـــصغار وكـــذلك ارتفـــاع معدلات الانتحار. وفي حالة مواجهة أي مجتمـــع لمظـــاهر تمـــزق نـــسيجه الاجتماعي من الداخل فإنه قد يتجه إلى أبداع عددو خارجي يروج للصراع معه حتي يستعيد التماسك الداخلي للمجتمع (٦٥).

ويتمثل الطرف الثالث في أنه بعد أن تربعت الولايات المتحدة بصفتها قـــوة عظمي علي عرش العالم، بدأت تعمل في أتجاهين. الاول العمـــل فـــي اتجـــاه السيطرة علي مصادر الطاقة في العالم، باعتبار أن الطاقة ســـوف تـــشكل روح العالم عبر الألفية الثالثة. ولأنها اذا سيطرت، علي مصادر الطاقة، فأنها ســـتقوم بإستخدامها للحد من قدرة الحضارات الأخري علي النمو والتطور بما لا يشكل تهديدا لها. واستنادا إلى ذلك أدركت الولايات المتحدة أن مصادر الطاقة العالمية في أغلبها تقع علي أرض تظلها الحضارة العربية الإسلامية. وأن الحضارة التي سوف تحتاج إلى الطاقة في المستقبل هي الحضارة الغربية التـــي تنتمـــي إلـــى الولايات المتحدة الامريكية، والحضارات الأخري كالحضارة الكنفشيوسية التـــي تشكل الحضارة المظلة للصين، القوة المحتملة في الالفيـــة الثالثـــة. وأختـــارت الولايات المتحدة السيطرة علي منابع النفط والطاقة. ولأن الحضارة الإســـلامية إلى دين يؤكد علي عدم الضعف وعدم الخضوع خاصة امام استلاب المـــوارد، فإننا نجد أن الغرب وعلي رأسه الولايات المتحدة الأمريكيـــة أختـــار أولويـــة الصراع معها، خاصة أن ثمة مقاومة قائمة.

علي هذا النحو فإنه اذا كانت نظرية فرنسوا فوكوياما قد إكتفـــت بتأكيـــد تفوق الحضارة الغربية الرأسمالية دون منازع الآن،وأن علي هذه الحـــضارة أن تستمتع بما وصلت إليه وتخلد إلى الراحة. فإننا نجد أن نظرية هنتنجتون تعبـــر في حقيقة الامر عن روح أمة انتصرت، وتبحث عن صراع خـــارجي لتأكيـــد تماسكها الداخلي، ومن ثم فهي تحتاج إلى تنظير يبرر صراعها علـــي الـــساحة العالمية مع الحضارات الأخري. علي هذا النحو يصبح الصراع فـــي ظـــاهرة صراع حضاري بينما هو في حقيقة الأمر صراع مصالح وثروات. علي هـــذا النحو ظهرت نظرية هنتنجتون في صراع الحضارات لتقوم بجمله الوظائف أو

المهام السابقة، وفي محاولة التعرف علي القضايا الأساسية لنظرية هنتنجتون فسوف نجده علي النحو التالي :

أ – بداية يمكن تصنيف نظرية هنتنجتون ضمن نظريات الصراع في علم الاجتماع، وهي النظريات التي تري أن الصراع يعتبر من العمليات الاجتماعية التي تلعب دوراً محوريا في بناء المجتمع. إما لفض التناقضات الاجتماعية كما هي الحال عند ماركس، أو لأن الصراع مع الوحدات الخارجية أيا كان مستواها يؤدي بطبيعته إلى تأكيد التماسك الداخلي للجماعة كما أكد علي ذلك علم الاجتماع لويس كوزر(٦٦). وفي هذه الحالة فإن نظرية صراع الحضارات كما قدمها صمويل هنتنجتون إلى جانب أنها يستهدف اعادة بناء العلاقات الدولية، فهي تصور الصراع الذي يؤدي وظيفة لبناء مجتمع الولايات المتحدة ذاتها(٦٧).

ب – ينضم هنتنجتون إلى العلماء الذين يرون أن الحضارة أكثر شمولا من الثقافة. ففي مؤلفة صدام الحضارات Clash of Civilization. يحدد هنتنجتون الحضارة بإعتبارها المظلة الشاملة التي تحتوي علي ثقافات كثيرة. علي هذا النحو تعد الحضارة أكبر الوحدات الاجتماعية التي تضم أكبر عدد من الشعوب، حيث لكل شعب أو مجتمع ثقافته (٦٨). تأكيدا لذلك اننا نجد أن هناك شعوب ذات ثقافات متباينة "كالشعوب الغربية" أو "الشعوب العربية الإسلامية" وأن كانت تنتمي جميعها إلى حضارة واحدة، الأولي الحضارة الرأسمالية الغربية والثانية الحضارة الإسلامية. وأن الحضارة في غالب الأحيان تكون أكثر دوما وتستند إلى مبادئ عقيدية ودينية في الغالب (٦٩).

ج – يقسم هنتنجتون العالم الذي سوف يحدث الصراع علي ساحته إلى قسمين بينهما علاقات إستعارها أو نقلها هنتنجتون من نظرية التبعية، وهي العلاقات التي تصورها هذه النظرية بين المركز والمحيط، أي تلك التي تقوم بين الحضارة الغربية وعلي رأسها الولايات المتحدة الأمريكية والحضارات

الأخري. وبهذا التنميط للعلاقات يري هنتنجتون أنه من المفترض حسب هذا التصور أن يمتلك المركز كل القوة، بل وعليه أن يصطنع الآليات التي تيسر له نقل مصادر القوة من مجتمعات حضارات المحيط إلى مجتمع حضارة المركز. وأن أي عائق أمام تدفق موارد القوة من المحيط إلى المركز سوف يقع علي "خط الصراع Fault Line" وهو الخط الذي سوف تتصادم حوله الحضارات في المستقبل (٧٠).

د – أن النظام العالمي يشتمل الآن في ساحتة علي سبع حضارات مازالت باقية وحية حتي اليوم. وهي الحضارة الكنفشيوسية Conficion، والحضارة اليابانية Jabanese، والحضارة الإسلامية Islamic، والحضارة الهندوكية Hindu، والحضارة الأرثوذكية السلافية Slavic Orthodox، وحضارات أمريكا اللاتينية Latin American، والحضارة الأفريقية African (٧١)، ذلك بالاضافة إلى الحضارة الغربية بطبيعة الحال. وعلي هذا النحو نجد أن هنتنجتون يصنف البشر بحسب حضاراتهم، مؤكدا علي وجود انقسامات بين شعوب الحضارات الغربية وفق خطوط الثقافات الخاصة بالمجتمعات. وقد إستبعد هنتنجتون خمس حضارات من أحتمالية الصدام مع الحضارة الغربية الرأسمالية استناداً إلى مبررات مختلفة. فقد إستبعد الحضارة الأفريقية بسبب ضعفها. كما أستبعد الحضارة اليابانية وحضارة أمريكا اللاتينية بسبب تحالفها القوي مع الغرب (٧٢). ولم يتعرض للحضارة الهندوكية أو الكنفشيوسية بإعتبارها حضارات ذوات احتماليات صراع مؤجل (٧٣).

هـ – يؤكد هنتنجتون علي اختلاف الحضارات. وهو الاختلاف الذي يمكن أن يؤدي إلى الصراع أو يؤدي إلى التحالف والتعاون. فهو يؤكد أن الاختلاف يمكن أن يؤدي إلى علاقات صراعية، وفي موضع آخر يذهب إلى ان الاختلاف قد لا يعني بالضرورة الصراع، كما قد لا يعني الصراع بالضرورة استخدام

العنف. وعبر التاريخ نجد أن الاختلافات بين الحضارات هي التي أدت إلى وقوع الصراعات العنيفة التي أتخذت في بعض الأحيان شكل الحروب. وعلي مدي ذات التاريخ أيضا نجد أن الحضارات قد تحالفت أو أندمجت مع بعضها البعض، ومن ثم تجاوزت هذه الاختلافات. فمثلا نجد أنه نظراً لإمتلاك الأوربيين والأمريكيين لخلفية حضاريه واحدة فإننا نجدهم يميلون إلى التحالف كوحدة ليتشكل الغرب القوي أمام العالم. وبسبب هذه القوة، فقد أصبح أهل هذه الحضارة يتربعون علي عرش العالم مؤسسين بذلك لتقسيم حضاري جديد بين "الغرب West " من ناحية وبقية الحضارات Rest أوبقية العالم من ناحية ثانية.

و – استنادا إلى تأكيد الغرب علي هويته الحضارية وتميزة حضاريا عن العالم طور هنتنجتون تصوراً لسلوك بقية rest العالم وحضاراته كرد فعل لهذا الموقف. في هذا الصدد يري هنتنجتون أنه أمام حضارات العالم ثلاثة إختيارات. الاختيار الاول العزلة Iaolotion. ويتمثل الاختيار الثاني في السعي للالتحاق بالغرب، من خلال قبول نظمة وقيمة والتسليم بها. علي حين يذهب الاختيار الثالث إلى تبني أهل الحضارة لمنطق النضال بهدف تحقيق التوازن مع الحضارة الغربية الرأسمالية، وهو النضال الذي يتخذ شكل تطوير قدراتها الاقتصادية وقوتها العسكرية مستندة إلى قيمها ونظمها الحضارية. ومن الواضح حسبما يذهب هنتنجتون أن الحل الاول والثالث مستبعدين في الوقت الحاضر كاختيارات. فقد أصبحت العزلة أحد أشكال العقاب الذي يفرضه الغرب أكثر من كونه إختياراً لأهل أي حضارة، ويأخذ عادة شكل العقوبات المفروضة. أما الاختيار الثالث فيراه هنتنجتون مستبعداً، لأن الغرب لن يتسامح في مواجهة أي سياسات أو استراتيجيات تقوم بها الحضارات من أجل التمكين الأقتصادي والعسكري، ويتابع الغرب ذلك من خلال ما يسمي بالمؤسسات الدولية كالبنك الدولي World Bank أو مؤسسة الطاقة الذرية أو الأمم المتحدة United Nations وكلها آليات تحت سيطرة الغرب (٧٤).

ز – في هذا الاطار نجد أن هنتنجتون يركز بدرجة أكثر علي الحضارة الإسلامية،وهو يعمل إلى تكثيفها لتترادف مع الدين الإسلامي أو تستند اليه. في هذا الاطار يلعب الدين الإسلامي دورة بإعتباره قاعدة للهوية والحضارة، وهو يشكل التزاما يتجاوز الحدود بين المجتمعات، حيث يلتزم المؤمنون بأن يرتبطوا به وحده. استنادا إلى ذلك فإنه اذا كان من السهل – حسبما يذهب هنتنجتون – أن يكون الشخص لدية جنسية مزدوجة كأن يكون نصف عربيhalf-Arab ونصف فرنسي half-Frenc، وفي نفس الوقت هو مواطن في الدولتين أو الحضارتين. فإنه من المستحيل أن يصبح الشخص نصف كاثوليكي-half Catholic ونصف مسلم half Muslim في ذات الوقت. علي هذا النحو يري هنتنجتون أن الدين الإسلامي يشكل قاعدة قوية للحضارة الإسلامية (٧٥). وبذلك تصبح الهوية الحضارية معطاه ومسلم بهـا، وتضحي الحضارة والدين مصطلحات تخفي نزعة قريبة الشبه من النزعة العنصرية.

ح – أنه اذا شكك البعض في أخلاق وقيم ومعايير الحضارة الغربية وعلي قمتها الولايات المتحدة الأمريكية. بإعتبار أن الأخلاق والقيم هي التي تنظم التفاعل الأنساني، فإننا نجد أن الحضارة الغربية الرأسمالية توجه سلوكها السياسي علي الصعيد العالمي أخلاق ومعايير مزدوجة. ردا علي ذلك يري هنتنجتون أن هذه مسألة عادية لأن حينما تتصارع الحضارات فإنه من الطبيعي أن تكون هناك معايير مزدوجة (٧٦). حيث يطبق البشر أحد المعايير علي المجتمعات أو الحضارات المتحالفة معهم، بينما نجدهم يطبقون معايير مختلفة علي الأخرين بما في ذلك الأعداء ويبدو أن صيغة المعايير المزدوجة
هي صيغة مشروعة حسب منطق وقيم الحضارة الغربية، بحيث نجد أن عالم الاجتماع فاكس فيبر نظر لهذه الصيغة من خلال تفرقتة الشهيرة بين أخلاق الاعتقاد وأخلاق المسئولية (٧٧).

ط – أنه من المنطقي أن تكون الحضارة الإسلامية هي الحضارة المرشحة للصراع وذلك لأربعة اعتبارات. ويتعلق الاعتبار الأول في الطابع التاريخي للصدام مع الغرب. أذ يحتوي التاريخ علي محطات عديدة للصدام بي الحضارة الغربية والإسلامية أبتدا من الحرب الصليبية تصفية المسلمين في الأندلس واستعمار الغرب للعالم الإسلامي وتقديم فلسطين وطنا ليهود الشتات، ومحاولة تصفية المسلمين في البوسنة والهرسك وأنتهاك أوطانهم كما في العراق، وتفتيت مجتمعاتهم كما هي الحال في العراق والسودان، والعمل بعناد علي حرمانهم من القوة كما هي الحال بالنسبة لإيران. ويتصل الاعتبار الثاني بأن الغرب قد طور مصالح خاصة به تتمثل في السعي من آجل الحصول علي بترول العرب والمسلمين. فهو أذا حصل علي البترول فسوف يكون بإمكانه التحكم في معدلات نمو الحضارات الأخري علي الصعيد العالمي، والغرب تتوافر لديه نية تأمين هذه المصالح ولو تطلب الأمر صراعا. ويتصل الاعتبار الثالث بالقاعدة الدينية للحضارة الإسلامية وهي في ذلك تختلف عن الحضارات الأخري في كونها حضارة قد تقبل التفاعل مع الحضارات الأخري لكنه لا تقبل الذوبان أو تبني القيم الغربية لاعتبارات كثيرة. ويتحدد البعد الرابع في أن الحضارة الإسلامية، كما تحددت في الوثائق الأساسية للإسلام، تتضمن توازن دقيقا بين التسامح مع الآخر والتفاعل معه بأريحية وبين مقاومته ودفع راية الجهاد ضده اذا هو قد حاول قهر شعوبها أو البطش بها. ويتمثل الاعتبار الخامس في حالة الضعف والوهن التي عليها العالم العربي والإسلامي الآن، وهي الحالة التي تشجع الآخرين علي الإغارة عليهم وقهرهم والحصول علي خيراتهم تجسيداً لقول الرسول الكريم " صلي الله عليه وسلم" توشك أن تتداعي اليكم الأمم كما تتداعي الأكله إلى قصعتها، قالوا أمن قلة يا رسول الله، قال بل من كثرة ولكنها كغثاء السيل".

رابعا : التنظير الحضاري في القرن الثاني والعشرين رؤية نقدية :

يشير تأمل التنظير المتعلق بالحضارة في النصف الثاني من القرن العشرين إلى تميزه بعدة خصائص أساسية نذكر أبرزها فيما يلي :

(١) أن التنظير الحضاري خلال هذه الفترة تمحور بالأساس حول فكرة الصراع. فهو تنظير ألهم بتنظير الصراع الطبقي، وأيضا بالصراع الذي حدث في فترة الحرب الباردة. أحيانا إعتقدت بعض نماذج التنظير كما في حالة "فوكوياما" أن الصراع قد حسم لصالح الحضارة الغربية الرأسمالية، علي خلاف نماذج نظرية أخري كما في حالة هنتنجتون الذي رأي أن احتمالات الصراع ما زالت قائمة ومستمرة.

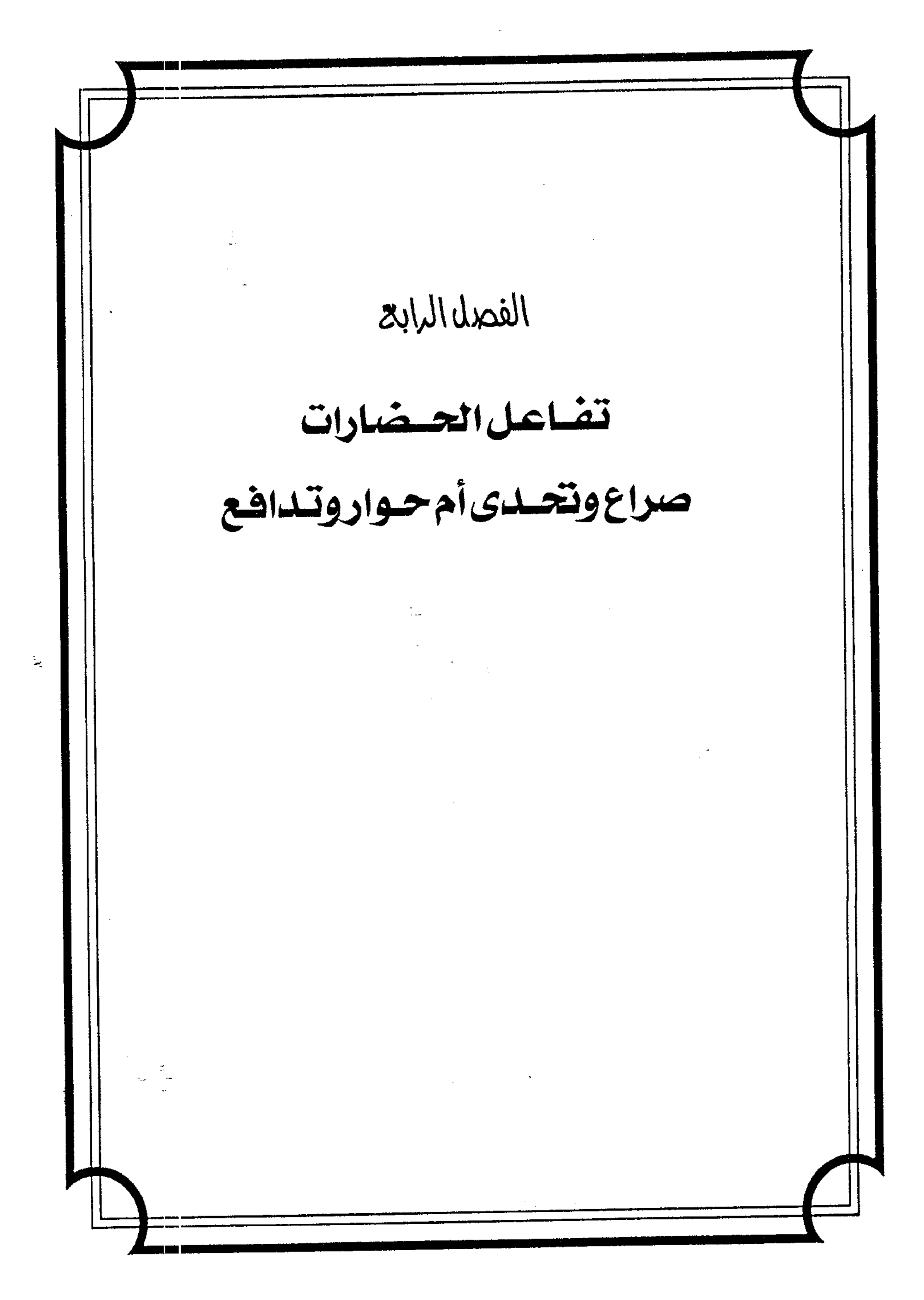
(٢) يؤكد التنظير الحضاري في النصف الثاني من القرن العشرين علي نزعة الحضارة الغربية الرأسمالية نحو التمركز حول الذات، وهي النزعة التي ظلت مسيطرة علي العقلية الغربية منذ بداية عصر الاستعمار وحتي نهاية الحرب العالمية الثانية، كما انها النزعة التي كانت وراء نشأة الفكر التطوري وكذلك نشأ ة نظريات التحديث، حيث رأت هذه النماذج النظرية أن الغرب يشكل النموذج الامثل للتحديث وأنه اذا رغبت المستعمرات المستقلة حديثا ان تحقق التقدم والتحديث فعليها أن تسلك نفس الطريق الذي سلكته المجتمعات الغربية (٧٨)، وأحيانا فرض الغرب هذه النماذج علي المجتمعات المستقلة بأساليب عديدة.

(٣) يشير تحليل التنظير الحضاري خلال النصف الثاني من القرن العشرين إلى أن الغرب والحضارة الغربية تميل إلى التعرف علي ذاتها من خلال الصراع. فتاريخها هو دائماً تاريخ الصراع مع الآخر. تأكيداً لذلك أن حركة الاستعمار تحققت من خلال الصراع الذي حسم لصالح أوربا بسبب عدم توازن القوي. وفي النصف الاول من القرن العشرين تبنت الحضارة

الرأسمالية الصراع مع الكتلة أو الحضارة الاشتراكية، وقد تحقق لها الانتصار في الصراع بسبب عوامل داخلية في الحضارة الأخيرة. وفي النصف الثاني من القرن العشرين اتجهت الحضارة الغربية الراسمالية بعد انهيار الكتلة الاشتراكية إلى تأسيس صراع جديد مع الحضارة الإسلامية بدأت بدايتها فعلا في ظل عدم تكافؤ القوة. اضافة إلى انها تعد العدة لصراع الألفية الثالثه مع الصين وحضارتها الكونفشيوسية. وهو ما يعني أن الغرب يتعرف علي ذاته ويؤكدها من الشك علي احتمالية أن يشارك الغرب فيما أصبح يغرف "بحوار الحضارات".

(٤) أن أعادة بعث التنظير الصراعي في مسألة التفاعل بين الحضارات يتسق إلى حد كبير مع فكر "العولمة" والتنظير الذي بدأ يروج لها. والتي تعني بالأساس محاولة فرض نمط الحياة الغربية وبخاصة الأمريكية علي مجتمعات العالم بهدف خلق تجانس ثقافي واجتماعي وحضاري عالمي قاعدته نمط الحياة الرأسمالية. وهو الأمر الذي

يعني ضمنيا إستبعاد المبادئ الأساسية للحضارات الأخري أو علي الأقل إضعافها.وفي مقابل ذلك العمل علي نشر مبادئ الحضارة الغربية الراسمالية لتصبح هي قاعدة لحضارة عالمية جديدة هي حضارة العولمة، أي تحويل مبادئ الحضارة الغربية الرأسمالية لتصبح هي ذاتها مبادئ لحضارة عالمية، وتوجد آليات عديدة لانجاز ذلك.



الفصل الرابع

تفاعل الحضارات

صراع وتحدى أم حوار وتدافع

الفصل الرابع

تفاعل الحضارات

صراع وتحدي أم حوار وتدافع

تمهيد

مع بداية الألفية الثالثة تسارعت الخطي بإتجاه تعميق مظاهر العولمة في اطار نظامنا العالمي المعاصر. وذلك يرجع إلى أن آليات العولمة السياسية والاقتصادية والثقافية قد أصبحت أكثر فاعلية وحسما في مقابل الوهن الذي أصاب الدول القومية. الأمر الذي جعل عالمنا قرية صغيرة لا تستطيع الحضارات في اطارها ان تعيش في عزلة عن بعضها البعض كما كان الأمر في الماضي. بل أصبح مفروض عليها أن تتفاعل. بحيث تأسس نتيجة لذلك موقف عالمي يفرض ذلك علي الحضارات جميعها، بسبب تجاورها من ناحية وبسبب وحدة القضايا لانكماش المكان من ناحية ثانية (٧٩)، ونظراً لأن الحضارة الغربية الرأسمالية تتفاعل مع الحضارات الآخري باعتبارها الحضارة الاقوي الآن علي الساحة العالمية والتي تسعي للهيمنة عليها وتنظيم تفاعلاتها. فقد كان من الطبيعي أن تستجيب الحضارات الآخري بردود فعل تعبر عن طبيعتها. فالحضارة الغربية الرأسمالية رأت الصراع باعتباره الآلية التي يمكن أن تضبط التفاعل والعلاقات مع الحضارات الأخري وبخاصة الحضارة الإسلامية أجلاً والحضارة الكونفشيوسية عاجلاً. في مقابل ذلك ثمة تجمع يتشكل من مجتمعات ذات خلفيات حضارية متباينة لتطوير ما يمكن أن نسمية بآلية التحدي كإحد آليات التفاعل الحضاري. علي خلاف ذلك نجد أن قطاعا من التفكير العلمي الذي تقدمه نخبة عالمية سلافية يعلو علي الصراعات الحضارية ويؤكد علي أهمية الحوار حتي يمكن الوصول إلى مبادئ شاملة تصبح هي الأساس لضبط

التفاعل بين الحضارات. وتقدم موقفا يقترب من موقف الحضارة الإسلامية التي تؤكد علي منطق جديد هو منطق التدافع الذي يؤكد علي التكامل بين الحضارات بهدف الارتقاء بالأوضاع الانسانية الشاملة، وسوف نعرض فيما يلي لوجهة نظر كل حضارة في الأسلوب الذي اختارته كمنظم للتفاعل والعلاقات مع الحضارات الأخري.

أولا : الصراع بغرض تحقيق المصالح وتعيين حدود الذات : بداية يؤكد التراث النظري والفلسفي للتاريخ الفكري للغرب علي الصراع بإعتبار. أن النموذج المهيمن في الإبستمولوجيا الغربية هو نموذج "الانا" التي لا تتعرف علي نفسها الا من خلال "الآخر"، الذي تختاره وتشكله وتصنعه بالصورة التي تجعله قابلاً لأن يقوم بالوظيفة التي تريدها. وظيفة تأكيد "الأنا" وبنينة كيانها. وقد ظل هذا النموذج الإبستمولوجي راسخاً في العقل الأوربي منذ فجر تاريخه. فمنذ الحضارة اليونانية والعقل الأوربي لا يعرف الأثبات الإ من خلال النفي."فبارمينيدس" مثلا لم يستطع الحديث عن " الوجود" الا من خلال طرح "اللاوجود". ولا الحديث عن "المتناهي" الا من خلال طرح "اللامتناهي". وحينما سعي تلميذه "زينون الإيلي" للدفاع عن أطروحات استاذه بني حججه علي أساس فكرة "أن كل سلب تعين"، وسيأتي "سبينوزا" في العصر الحديث ليؤكد العكس من خلال قوله "إن كل تعين سلب" ولم يفعل "هيجل" شيئا أخر سوي أنه جمع بين فكرة "زينون" وفكرة "سبينوزا" ليؤسس الدياليكتيك عليها فيقرر أن "كل تعين سلب وكل سلب تعين" وهذا الترابط هو الذي يصنع "التأليف" الذي يتحول إلي فكرة تستدعي نقيضها،وهكذا تظهر أهمية النفي في التراث الفلسفي الأوربي "فالاثبات لا يقوم الا عبر النفي، والأنا لا تتحدد إلا عبر الآخر". أو كما قال "سارتر" الآخر ضروري لوجودي"[٨٠]. وفي الجملة لا يري العقل الغربي العالم إلا من خلال تقابل الأطراف، كتقابل الأنا والآخر تقابل تضاد وصراع.

ويري الغرب دائماً "الآخر" مصدر خطر. فالحديث عنه كان تارة باعتباره "الخطر الأحمر" وتارة ثانية بإعتباره "الخطر الأصفر" وتارة ثالثة بصفته "الخطر الأخطر" أي الإسلام. وفي فكر صدام الحضارات يجمع الذين الأخرين تحت اسم الحضارة "الإسلامية الكنفشيوسية"، وفي جميع الاحوال يتم السكوت عن اللون "الأبيض" لأنه هو المطلوب تعريفه(٨١). ذلك يعني أن "الأنا" في الفكر الغربي لا تتعرف علي نفسها الا من خلال "الآخر" حيث نجدها تضع نفسها كمقابل له، كذات تدخل معه في الصراع، بحيث نجد أن ذلك ظل شائعا طيلة المراحل التاريخية للحضارة الغربية. ففي الحضارة اليونانية والرومانية كان المواطن يتعرف علي هويته من خلال "العبد" داخليا "والبرابرة" في الخارج. وفي القرون الوسطي كان "الإسلام" أو " العرب" هو الآخر الذي تتعرف من خلاله المسيحية الغربية علي نفسها. وفي العصر الحديث ظهرت ثنائية جديدة تتحدث عن "الشرق" والغرب.واستمرت هذه الثنائية تتغلغل في العقل الغربي إلى درجة أن مفكراً انجليزيا لم يستطيع تحديد "الغرب" إلا بقوله "الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا" (٨٢).

واذا كان التراث النظري الغربي يشكل المرجعية التي توضح اختيار الحضارة الغربية للصراع الذي تشارك بالاستناد اليه في التفاعل والعلاقات الدولية، فإن الحضارة الغربية ذاتها وفي واقعها تعاني من بعض الظواهر التي تمزق نسيجها الداخلي. ومن ثم نجد أن مجتمعات هذه الحضارة تلجأ إلى إصطناع الصراعات الخارجية الدولية والمشاركة فيها كمدخل لإستعادة الالتئام للنسيج الداخلي لأبنيتها الاجتماعية.ارتباطا بذلك تؤكد بعض الدراسات علي حدوث بعض الظواهر التي يمكن أن تصبح مقدمات لإنهيار هذه الحضارة أو تمزق نسيج متجمعاتها. إذ يشكك كثير من الأمريكيين من أن الشعور بقيمة أمريكا وتميزها بدأ يضعف جداً بين أجيال الشباب الذين هم الآن في المدارس

والجامعات باضافة إلى ذلك فقد انتشرت بينهم انتشاراً مخيفا فواحش الأباحية والشذوذ الجنسي.(٨٣) كما أكد استطلاع آخر طبق علي بعض المدارس قبل جيل مضي أن أكبر المشكلات التي يعاني منها الطلاب هي عدم احترام الممتلكات العامة والكسل وعدم أداء الواجبات المنزلية، والحديث داخل الفصل المدرسي وعدم الانتباه اثناء الدرس والتراشق بالأشياء القذرة. فلما أعيد الاستطلاع قبل عدة سنوات أظهرت النتائج أن أكثر المشكلات هي الخوف من القتل العنيف بالبنادق أو السكاكين في المدرسة والاغتصاب والحمل والجهاض، حتي فضل كثير من الأمريكان عدم أرسال أولادهم إلى المدارس وتفضيل التعليم المزلي لهم (٨٤). كما تذهب دراسة أخري إلى أنه اذا كان الاتحاد السوفيتي قد انهار لأسباب اقتصادية فإن انهيار الحضارة الغربية سوف يكون لأسباب اخلاقية بالأساس. في هذا الاطار تعتبر قضية المخدرات من اخطر القضايا التي تهدد الغرب. واستناداً إلى عينة أجريت علي طلاب المدارس الثانوية اتضح أن ٤٠% من الطلاب يتعاطون مخدرات بصورة دائمة وأن جميع الطلاب يمكن أن يكون قد تعاطوها مرة واحدة. إلى جانب ذلك تعاني مجتمعات الحضارة الغربية من تفكك الأسر وانهيارها ولذلك علاقة بطبيعة الحال بتعاطي المخدرات (٨٥).

ويعتبر إدراك أهل الحضارة الغربية لطبيعة الحضارة الإسلامية من العوامل التي تلقي بالزيت علي نار الصراع. اذ يدرك مفكروا الغرب وفلاسفته أن الحضارة الإسلامية كما يؤكد المستشرق اليهودي برنارد لويس ظلت لقرون طويلة كانت أعظم حضارة علي وجه الأرض، واغني حضارة واقواها وأكثرها إبداعاً في كل حقل ذي بال من حقول الجهد البشري حيث كان عساكرها، أساتذتها وتجارها يتقدمون في موقع أمامي في أسيا وأوربا وأفريقيا ليحملوا ما اعتبروه حضارة ودين قيم إلى الكفار البرابرة الذين كانوا يعيشون خارج العالم

الإسلامي. ولا يخفي برنارد لويس شماتته حينما يقول والآن تغير كل شئ، فالمسلمون بدلاً من أن يغزوا الدول الأخري ويسيطروا عليها صاروا هم الذين تغزوهم القوي القوى. تسيطر عليهم [86]. وتنتقل العقلية الغربية من الشماته إلى الخوف المرضي من المستقبل من خلال التأكيد علي أن قادة الحضارة الغربية يخشون علي حضارتهم من كل بادرة احياء لتك الحضارة التي كان لها في بداية التاريخ سؤددها. وما يزيد من خوفهم قول مفكريهم المهتمين بالتاريخ الإسلامي أن للإسلام مقدرة عجيبة علي العودة كلما هزم.

بالاضافة إلى ذلك تسعي العقلية الغربية إلى تطوير صورة سلبية للحضارة الإسلامية بهدف "وصمها" حتي تتأهل لكي تكون عدواً ينبغي مصارعته ولرسم هذه الصورة الموصدمة للحضارة الإسلامية نجد ان برنارد لويس الذي صك عبارة "القطيعة بين الحضارات يذهب إلى قول أن " الإسلام لا يعطي شيئا ذا نفع، والضغينة تتحول إلى غضب ضد الغرب. لكن النصر الأمريكي مؤكد"[87]. ويكمل الصورة لوران موراميك أحد العاملين في مؤسسة "راند كوربريش" الذي أكد ان العالم العربي والإسلامي يعيش حالة أزمة منذ قرنين. فهو عالم قد عجز عن تحقيق ثورته الصناعية أو الرقمية. ومن ثم فهو عالم يعاني من الفشل الذي انتج حالة من الاحباط والخيبة الشديدة التي تحولت إلى غضب مضاد للغرب. ثم أن العرب لا يجيدون الحوار، لأن العنف يبدو في ثقافتهم شكل من أشكال السياسة [88].واذا كانت حضارة الإسلام دينية وأخلاقية فإن علي الغرب أن يفوض أخلاق هذه الحضارة كأحد مداخل إضعافها. تأكيدا لذلك نجد أم رئيس الوزراء الأسرائيلي السابق "بنيامين نتنياهو ذو العقلية الغربية" لينصح الولايات المتحدة قائلاً " إن بإمكان الولايات المتحدة أن تحرص علي إحداث ثورة ضد النظام الإسلامي المحافظ في أيران بأن تستغل وجود الآلاف المؤلفة من الاطباق الفضائية فيها لتوجيه برامج أمريكية قذرة كتلك التي تذيعها قناة "فوكس

الأمريكية" حيث يظهر فيها شباب وشابات حسان في حلات مختلفة من حـالات العري. يعيشون حياة مادية بهيجة ويمارسون الجنس بطرق اباحية، فهذه مـادة هدامة. وإن الأولاد في إيران سيحبون أن تكون لهم أحواض سباحة وأسـاليب تلك الحياة الفاتنة (٨٩).

علي هذا النحو يرسم تراث وواقع الحضارة الغربية صورة سلبية للحضارة الإسلامية يختلط فيها كونها حضارة موصومة بصفات سلبية عديدة، ثـم هـي حضارة تشكل مصدر تهديد للحضارة الغربية، الأمر الذي تسعي معه عقلية هذه الحضارة، إلى تنصيبها عدوا ينبغي الصراع معه لإخضاعه.

ثانيا: استدعاء إرادة التحدي كآلية للتفاعل الحضاري : تصور مفكرو القـرن التاسع عشر الحضارة بإعتبارها كائنا عضويا يمر بمراحـل النـشأة والنـضج والانحلال. أكد علي ذلك بن خالدون كما أكد علية شبنجلر كذلك. بيد أننا نعتقـد أن الحضارة لا تفني كما يفني الكائن الحي، الذي يعني فناؤة تحولة مرة أخري إلى عناصره الأساسية التي تشكل منها، ليتحد مرة أخري مع الطبيعة التي تخلق عنها. علي عكس ذلك نجد الحضارة وبخاصة الحضارات العظيمة حيث نجدها لا تموت فهي قد تنعزل جغرافيا وتاريخيا، وقد تتوقف عن إعادة انتاج نفـسها، غير ان مادتها ما تزال قائمة، إذا صادفت من يسعي إلى إحيائها من جديد فإنها تستيقظ قويه وممتلكة العافية. فقد ماتت الحضارة العبرية عاش اليهود أصـحاب هذه الحضارة لقرون عديدة في الشتات الا أنهم قاموا بإحياء هذه الحضارة اليوم حينما يسرت الظروف ذلك، بحيث أصبحت تشكل الخلفيـة الحـضارية لدولـة أسرائيل، بهذا المنطق يمكن إحياء الحضارات القديمة كالحضارة الفرعونية مثلاً ما دامت لغتها وتنظيمات الاجتماعية ما زالت قائمة ولو حتي داخل المتاحف.

وإذا كان بالامكان إحياء الحضارة بعد موتها، فإنه من المنطقي أن نعمـل علي ضخ دماء القوة في الحضارة بعد ضعفها وتراجعها لتـصبح فاعلـة مـن

جديد. ذلك يحدث إما بالعمل علي إحياء الحضارة ذاتها كما فعل اليهود، وإما بخلق تكتل حضاري جديد وذلك من خلال اندماج مجتمعات تنتمي إلى حضارات متباينة لكي تشكل اندماجاً وكتلة حضارية جديدة تعمل علي أن تطرق طريق النضال في مواجهة الحضارة الغربية الرأسمالية المسيطرة. ومن الطبيعي أن يحتاج هذا التكتل ما يمكن أن يسمي بالدولة النواة. وقد لعبت روسيا دور الدولة النواه – التي عانت منذ انهيار الاتحاد السوفيتي في بداية عقد التسعينيات من مساعدات صندوق النقد الدولي والدول الغربية التي لم تفعل سوي نهب الاقتصاد الروسي بإدعاء اصلاحه – ومن ثم فقد سعت إلى تشكيل تكتل دولي جديد بدأ بتوقيع معاهدة الصداقة الإستراتيجية بين روسيا والصين في عام ٢٠٠١ والتي تقضي بتقوية التعاون السياسي والاقتصادي بين الدولتين في مجالات النقل والطاقة والتجارة والتبادل التكنولوجي والتسليحي خلال العشرين سنة القادمة. وقد إعتبر المحللون الغربيون أن ذلك يشكل تحديا استراتيجيا لنظام القطب الواحد السائد في العالم الآن. بالاضافة إلي ذلك فقد اسست كل من الهند وروسيا وإيران في ١٥ مايو ٢٠٠١ "إتحاد النقل الأوروأسيوي" وهي اتفاقية ترانزيت تجارية لنقل البضائع من "الهند" بحراً إلى ميناء "بندر عباس" الإيراني، وعبر شبكة سككك الحديد الايرانية إلى "بندر انزلي" علي بحر قزوين، ومن ثم بحراً إلى ميناء "استراخان" الروسي وصولاً إلى شمال شرق أوربا. ومن شأن ذلك أن يطور ويعمق شبكة العلاقات الاقتصادية بين هذه الدول حتي تبرز باعتبارها ذات وجود سياسي. ويتكامل مع ذلك تأسيس "منظمة شنغهاي للتعاون" في يونيو ٢٠٠١ وتتألف من كل من الصين وروسيا وكازاخستان وكيرجستان وطاجيكستان، أو زبكستان، حيث عرفت هذه المجموعة بمجموعة شنغهاي[٩٠]. وكان هدف هذه المجموعة في البداية محاربة ما يسمي بالتطرف الإسلامي، لكنه بدأ تدريجيا يتحول إلى تكتل اقتصادي يؤسس نوع من التعاون الاقتصادي

بين أعضاء هذه المجموعة. وتسعي تركيا وعدد من الدول العربيـــة للانـــضمام إلى هذا التكتل. لقد حول هذا التكتل استراتيجية "طريق الحرير" التي كانت تبدو أحلاما جميلة في بداية التسعينيات إلى واقع اليوم بسبب الجهد الكبير الذي بذلته الصين وإيران ودول آسيا الوسطي والآن روسيا. حيث أصبح هذا التجمع تكتلا عالميا غير معلن قد تنجذب اليه أوربا التي تتعطش لتوسيع نطـــاق صـــادراتها الصناعية إلى أوربا الشرقية وأسيا، غير أنها ما زالت تخـــاف مـــن رد الفعـــل الأنجلو أمريكي الذي ينظر إلى هذا النمط من التعاون القاري بإعتبـــاره مهـــدداً لمصالحها. في نطاق ذلك يعبر هذا التكتل عن رغبة الصين وروسيا والهند في خلقه "عالم متعدد الأقطاب". وقد عبر عن ذلك صراحة رئيس الوزراء الروسي السابق "يفجيني بريماكوف" أثناء زيارته للهند في ديسمبر عام ١٩٩٨ عن رغبة بلاده في تأسيس التحالف الثلاثي بين الهند وروسيا والـــصين[٩١] ليكـــون هـــذا المثلث قاعدة لتكتل عالمي يستطيع الوقوف في مواجهـــة الحـــضارة الغربيـــة الرأسمالية التي أصيبت بداء الصلف والغرور.

ومن الطبيعي أن تتابع الحضارة الغربية الرأسمالية من خـــلال مفكريهـــا تشكل هذا التكتل الذي قد يصبح – كما أكد مفكروها – تهديدا للمصالح الغربية عامة والمصالح الأمريكية خاصة. مثال علي ذلك فقد نبه "زبيجيف بريجنسكي" مستشار الأمن القومي الأمريكي السابق إلى خطورة تشكل هذا التكتل وطالـــب بضرورة مواجهته من خلال حصار الدولة النواة ، بتقديم نظريته عـــن "قـــوس الأزمات" والتي تعني خلق طوق من الحروب الاقليمية والدينية وغيرها علـــي طول حدود الاتحاد السوفيتي مع العالم الإســـلامي، مـــن بـــنجلادش وكـــشمير وأفغانستان مروراً بإيران والعراق ومنطقـــة الهـــلال الخـــصيب نـــزولاً إلـــى السودان[٩٢]. ويتفق مع ذلك ما ذهب اليه هنـــري كيـــسنجر وزيـــر الخارجيـــة الأمريكي السابق في كتابه الذي تساءل فيه " هل تحتاج أمريكـــا إلـــى سياســـة

خارجية مؤكدا أثناء الأجابة علي ذلك بأن الأزمة الاقتصادية العالمية هي أكبر تهديد للديموقراطية المعاصرة" ثم يضيف "أن وقوع أزمة مالية قوية أخري في آسيا أو في الديموقراطيات الصناعية، سيعجل بالتأكيد جهود دول آسيوية عديدة للحصول علي سيطرة أكبر علي مصائرها السياسية والاقتصادية، عن طريق خلق بديل أسيوي للنظام الاقليمي الحالي. إن بروز تكتل أسيوي معاد يضم مزيجا من أكثر الدول تقدما من الناحية الصناعية لن يكون ملائماً للمصلحة القومية الأمريكية ". ويقترح كيسنجر في كتابه أن تتحول أمريكا إلى النظام الامبراطوري كسابقتها بريطانيا، حيث تدير الولايات المتحدة في اطاره شئون العالم عن طريق سياسات "توازن القوي" "أي ضرب أي دولة بأخري وأي شعب بآخر وأي طائفة بأخري، ومن ثم التدخل عسكرياً لادارة هذه الأزمات"(٩٣). واذا كان هذا التكتل ما زال ينمو ويتبلور ساعيا وراء استكمال اراده التحدي، واذا كانت الرأسمالية الغربية مازالت تراقب عن كثب بحثا عن الفرصة الملائمة للإنقضاض عليه، فإننا نكون بإزاء قوتين ثمة صراع محتمل بينهما، اذا تفجر فإن القوة التي تتسق حركتها مع قوانين الوجود والتاريخ هي التي سوف تنتصر.

ثالثا: الحوار كآلية للبحث عن مبادئ إنسانية عادلة : مثلما أن هناك مفكرون يؤكدون علي الصراع كآلية تستند اليها المشاركة في التفاعل الحضاري والعلاقات الدولية. نجد أن هنك من يرفضون هذا المنطق، ويرون ان التفاعل السلمي بين الحضارات هو القاعدة بينما الصراع هو الاستثناء. ومن ثم ينبغي النظر إلى ظهور بعض الكتابات المؤكدة علي صراع الحضارات بإعتبارها – كذلك – استثناء للتراث النظري الذي يؤكد علي التفاعل الايجابي بين الحضارات، وهو التفاعل الذي يسمح بالقبول المتبادل للعناصر الحضارية بين الحضارات المختلفة، بحيث تصبح هذه العناصر في مجموعها ساحة للالتقاء

الحضاري.علي هذا النحو نجد أن بعض وجهات النظر تؤكد علي أن الصراع ليس حتميا، لأنه يجافي سنة التاريخ ويتعارض مع طبيعة الحضارة، فالحضارة لا طابع عرقي لها، وهي لا ترتبط بجنس من الاجناس، ولا تنتمي لشعب من الشعوب، علي الرغم من أن الحضارة قد تنسب إلى أمة من الأمم أو إلى منطقة جغرافية من مناطق العالم علي سبيل التعريف ليس إلا، بخلاف الثقافة التي هي رمز للهوية، وعنوان علي الذاتية وتعبير عن الخصوصية التي تتميز بها أي أمة من الأمم أو أي شعب من الشعوب (٩٤).

يذهب هذا الفريق الذي يؤكد علي حوار الحضارات بإعتباره القاعدة إلى الانطلاق من عقيدة أن مبادئ الحضارات المختلفة تحتوي علي مبادئ انسانية عامة تستهدف حياة البشر في ظل حياة انسانية تأكيداً لذلك أتفاق أغلبية الحضارات حول مبادئ الحق والعدل علي الصعيد العالمي. يبرهن علي ذلك أن الغربيون لم يكونوافقط هم الذين أدانو الهجمات علي مركز التجارة العالمي والبنتاجون في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ إعتبروها عملاً إجرامياً سنيعا، ولكن المسلمين في كل مكان أدانوا قتل الأبرياء عشوائيا. وبالمثل لم يكن المسلمون فقط هم الذين تظاهروا ضد غزو العراق وأفغانستان، بل تظاهر في نفس الوقت الملايين في أنحاء أوربا والعالم ضد ذلك. لقد كانت مظاهرات الغربيين ضد الحرب في العراق أكثر بكثير من المظاهرات التي أندلعت في العالم الإسلامي. وهي الحقيقة التي تشير إلى عدم وجود أنقسام بين الغرب ةالإسلام فيما يتعلق بقضايا الحق والعدل الرئيسية التي تواجه الانسانية جميعها اليوم (٩٥).

من ناحية ثانية فإن القول بصراع الحضارة الغربية مع الحضارة الإسلامية قول مصطنع، وإذا كان هناك من يقول بإنهيار الحضارة الغربية فإن ذلك لا يعني تلقائيا سيطرة الحضارة الإسلامية. لأنه من الممكن أن تؤول السيطرة إلى حضارة أخري مثل الحضارة اليابانية أو الصينية، وقد تكون

الحضارة البديلة أسوأ من الحضارة الغربية. اذ ليس من الانصاف أن ننكـر أن هناك قيما انسانية تلتزم بها الحضارة الغربية علي الرغم من كل علاتها. وسواء بقيت الحضارة الغربية أو انهارت فإن مشكلاتنا ستظل قائمة، لأنها نابعة مـن داخلنا. فليس الغربيون هم الذين يمنعونا من أن نجعل أمتنا أمـة شـامخة (٩٦). حقيقة أن الحضارة الغربية هي التي استعمرتنا تاريخيا وطـويلاً، وهـي التـي استنزفت مواردنا ماضيا وتستنزف ذات الموارد حاضراً الا أنه من المعتقـد أن ذلك صراع مصالح بالأساس، وصراع المصالح يمكن الحوار بـشأنه، حيـث ينبغي أن يكون تبادل المنافع تبادلاً متوازنا وليس تبادلاً صفريا.

بالإضافة إلى ذلك فبرغم اننا قد عرضنا لكثير من سـلبيات الحـضارة الغربية، فإن الحضارة الغربية لها ايجابيات كثيرة كذلك. يقول الفريق المؤكـد علي الحوار أنه لو أن الحضارة الغربية قد بدأت بالمخدرات والتفكك الاسـري فإنها ما كانت لتتطور أبداً، لأن التطور المادي يحتاج إلـى قـدر ملائـم مـن الأخلاق. في هذا الاطار لا يستطيع احد انكار ما للنظام الديموقراطي من مزايا علي الأقل بالنسبة للبشر في داخله. حيث يحتكم الناس إلى القـانون مـن دون تفرقه (٩٧). وبغض النظر عن سعي الغرب لتحقيق مصالحة والـسيطرة علـي البترول، فإنه في نفس الوقت يسعي إلى بناء صداقة حقيقية مع الشعوب العربية الإسلامية الذي يتمني لها أن تعيش حياة ديموقراطية وسليمة. علي سبيل المثال يضغط الغرب علي الانظمة السياسية لتقبـل بـصيغة الديموقراطيـة بالنـسبة لشعوبها، بدلاً من تعريض شعوبها لصنوف من القهر والمذلة والاحباط. في هذا الإطار نجد أن الرئيس بوش يصرح في خطابه الشهير في كلية "وست بوينـت" قائلاً أنه "عندما يأتي الأمر إلى حقوق الناس رجالاً ونساء، وكـذلك حاجـاتهم فليس هناك صدام حضارات. أن متطلبات الحرية تصدق علي أفريقيا وأمريكـا اللاتينية والعالم الإسلامي في كليته. أن جماهير الناس فـي الأمـم الإسـلامية

يريدون ويستحقون أن يحصلوا علي كل الحريات والفرص التي للناس في كـل أمة، وأن علي الانظمة السياسية أن تستجيب لطموحاتهم فذلك يؤكد الاحـساس بالانجاز علي حساب إلغاء الأحساس بالاحباط. ومن شأن ذلك أن يساعدنا علي أن نعترف بمعروف الذين ساعدونا، وأن نعمق العلاقات معهم. حقيقة أنهم قـد يستهدفون تحقيق مصالحهم من خلال هذه العلاقة بيد أن ذلك لا يمنع أن نستفيد من هذه العلاقة الحوارية في الحفاظ علي مصالحنا.

بالاضافة إلى ذلك تلتقت الحضارة الغربية الرأسمالية من الحضارة العربية الإسلامية خلاصة انجازاتها الحضارية في مختلف المجالات، فـي الكيميـاء، والطب، والأحياء، والفلك – مثلما أخذت الحضارة الإسلامية عن اليونانية قبـل ذلك – حيث شكلت هذه الانجازات دماء ضخت روحا حـضارية فـي عـصر النهضة الغربية.واذا كانت الحضارة الغربية تحصل علـي خامـات الحـضارة العربية الإسلامية اليوم كالبترول ببعض الثمن – حسبما يذهب البعض – فـإن المسلمين والعرب يحصلون الآن بدورهم علي إنجازات الحضارة الغربية فـي مجالات العلم ونقل التكنولوجيا. حيث ترسل البعثات لتحصل علي غاية ثمار أو نتائج العلم والثقافة الأوربية، اذا أحسن استخدامها فسوف تساعد بإمتياز علـي تحديث مجتمعاتنا العربية الإسلامية. فإذا لم يحسن إستخدامها فليس ذلك ذنـبهم بل خطيئتنا نحن. يضاف إلى ذلك أن المجتمعات الغربية اليوم تستقبل جاليـات إسلامية كبيرة فاضت عن مجتمعاتها وهاجرت إليها. في هذا النطاق قد تحـدث بعض مظاهر سوء المعاملة أحياناً، غير أننا لا نعفي الطرف العربي الإسلامي من بعض المسئولية عن ذلك. إلى جانب ذلك يسعي أبناء الحـضارة الغربيـة والإسلامية علي السواء إلى عقد مؤتمرات عديدة حول الجوانب المختلفة للتفاعل بين الحضارات، هدفها الأساسي من الجانبين هو الوصول إلى كلمـة سـواء، وايضا إلى اعتماد آلية الحوار كآلية للتفاعل [٩٨]. واذا كانت هذه الحضارات لم

تحقق التقارب أو التفاهم المطلوب اليوم فربما تمكنت من انجاز ذلك في المستقبل.

ويبدو أنه من الخطأ أيضا أن نعامل أبناء الحضارة – الغربية أو الإسلامية – كأنما هم كتلة واحدة في حين أننا قلنا في تعريفنا للحضارة أنها مظلة تغطي ثقافات وشعوب عديدة. تأكيداً لذلك فإنه اذا افترضنا أن الحضارة الرأسمالية الغربية تقف موقفا عدائياً من الحضارة الإسلامية، فإننا نجد علي عكس من ذلك أن بعض مجتمعات هذه الحضارة تقف موقفا ايجابيا من بعض القضايا العربية والإسلامية. فقد عارضت المانيا وفرنسا الحرب علي العراق، وهي الذي تدعو الآن إلى الخروج من العراق. بعض هذه المجتمعات تتفاوض الآن مع إيران ولا تريد التعجل بتحويل ملفها إلى مجلس الأمن بسبب برنامجها النووي. بالاضافة إلى ذلك فإننا نجد أن الاتحاد الأوربي يقف في أحيان كثيرة إلى جانب الحق العربي والإسلامي في فلسطين. حقيقة أنها مواقف غير مؤثره لأنها علي هامش التفاعل، غير أنه يمكن توسيعها وتعميقها لتصبح هي قاعدة التفاعل. بالمثل نجد أن مجتمعات الحضارة الإسلامية لاتقف موقفا واحداً من الحضارة الغربية الرأسمالية، إذ توجد مجتمعات إسلامية أقرب ما يكون إلى مجتمعات الحضارة الأوربية فتركيا الإسلامية وباكستان والمملكة العربية السعودية ومجتمعات الخليج هي الأعمق من حيث علاقاتها مع الولايات المتحدة الأمريكية، كذلك نجد أن المملكة المغربية ولبنان وتونس هي الأكثر ارتباطا بفرنسا. وبقية المجتمعات العربية لها علاقات سوية بعديد من المجتمعات الغربية الأمر الذي يلقي بظلال من الشك علي نظرية الصراع التي بشر بها هنتنجتون باعتباره صراع كتل حضارية متماسكة.

علي هذه الخلفيات التي تؤكد علي التقارب الذي يمكن أن يصبح الحوار مدخلاً له. فإن علي سكان العالم بمختلف حضاراته ودولة أن يعملوا في اتجاه

توطيد القيم الكونية كالمساواة والحرية والعدل، وهي القيم التي تستلزم ضمنا ترسيخ الديموقراطية وحقوق الانسان في كل حضارة، كما تتطلب إتاحة الفرصة أمام البشر للسيطرة علي ثروات مجتمعاتهم والمشاركة العادلة فيها. وليس هناك حضارة تعارض قيم العدل الانساني أو الحرية السياسية والدينية. أن إنكار هذه القيم من خلال أي تعبير حضاري ما هو إلا وسيلة لحماية قوي سياسية معينة أو الابقاء علي المزايا التي تتمتع بها مجموعة ما علي حساب الآخرين. فقد آن الأوان لكي تعترف الحضارة الغربية بحقيقة أن حداثتها لم تأت من فراغ، وإنما هي نتيجة التراكم التاريخي للقيم المنقولة من حضارات قديمة مختلفة منذ أن وطأ الانسان الأرض بقدمه، وتعلم انتاج حاجاته. إن القيم الانسانية الكونية التي ينظر اليها بإعتبارها قيما غربية فقط، تعود في الواقع إلى كفاح الانسان من أجل السلام والعدل. إنها – بصرف النظر عن الخلفية الدينية أو الحضارية أو السياسية الاجتماعية – ملكية كل الأمم والحضارات التي كافحت طيلة العصور التاريخية السابقة (٩٩).

رابعا: التدافع لتحقيق تكامل حضاري وأنساني : اذا كانت الحضارة الغربية في نشوه الانتصار قد تبنت منطق الصراع بإعتباره المنطق الذي ينبغي أن ينظم التفاعل بين الحضارات، واذا كان ثمة تكتل أوروأسيوي يتجمع ليطور ارادة التحدي في مواجهة الحضارة الغربية، فإننا نجد أن الحضارة العربية الإسلامية قدمت آلية التدافع بإعتباره الآلية الملائمة لضبط التفاعل بين الحضارات. ذلك لأن التدافع الذي يعني التفاعل الايجابي بين الحضارات، هو في حد ذاته دعوة إلى التأكيد علي أن الحضارة ينبغي أن يستظل بها الناس كافة، وهو يستند إلى عدة قواعد أساسية، أول هذه القواعد التأكيد وحدة الجنس البشري، ووحدة الأصل المنبثق عن المشيئة الإلهية. في ذلك يقول الله تعالي "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثي وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم

عند الله أتقاكم " (الحجرات أية ١٣) وهو ما يعني أن الله خلق الناس وجعلهم شعوبا شتي وقبائل متفرقة يسعون في الأرض من أجل غاية سامية هي التعرف فيما بينهم. وهو التعارف الذي يرتقي إلى مستوي أعلي هو "تبادل المعرفة" أو "تبادل المعارف" بكل ما في المعنيين من دلالات لغوية ومعرفية وإنسانية عميقه. ذلك يعني انه كلما إتسعت المعرفة المتبادلة بين الشعوب والأمم علي مختلف المستويات، ضاقت مساحة الخلاف وإنزوي الأختلاف وتراجع وفقد القدرة علي التأثير السلبي الذي يلحق أفدح الأضرار بالمجتمعات الانسانية[١٠٠]. علي هذا النحو يسعي التعارف بالمعني الإسلامي إلى محاصرة الصراع الذي ينتج عن الانغلاق علي الاخر وعدم الانفتاح عليه. وتتمثل القاعدة الثانية في التسامح الذي يفتح الأبواب واسعة من أجل التفاعل مع الآخر،ويفتح السبيل أمام احتكاك الامم والشعوب ببعضها البعض. ارتباطا بذلك فقد شجعت الحضارة الإسلامية علي التفاعل مع الثقافات والحضارات جميعا. ونعني بالتسامح -- تحديداً – أن تكون لكل طائفة داخل المجتمع الإسلامي الحرية الكاملة في تأدية شعائر دينها، وأن يكون التسامح سواء علي المستوي الداخلي داخل الحضارة الواحدة أو بين الحضارات المختلفة أو المتعددة في هذا الاطار بإتجاه التسامح مع قبول الأخر وانجازاته الحضارية كما هي، والتفاعل معها طالما أنها لا تضر بأسس عقيدية عند الآنا. [١٠١]

وتؤكد القاعدة الإسلامية الثالثه في النظر إلى الصراع بإعتباره حالة عارضة، أو هو شذوذ عن القاعدة، فليس الصراع والتناصر من طبيعة الحضارات لأنه يتنافي والفطرة الإنسانية، وهونقيض التفاعل الحضاري الذي تستند اليه الحضارة الإسلامية. ارتباطا بذلك نجد أن الإسلام ينظر إلى الصراع بإعتباره نوع من "فساد الأرض" الذي يعني إختلال النظام الذي وضعه الله لحياة البشر فوقها. علي هذا النحو يعتبر الصراع مظهر من مظاهر فساد

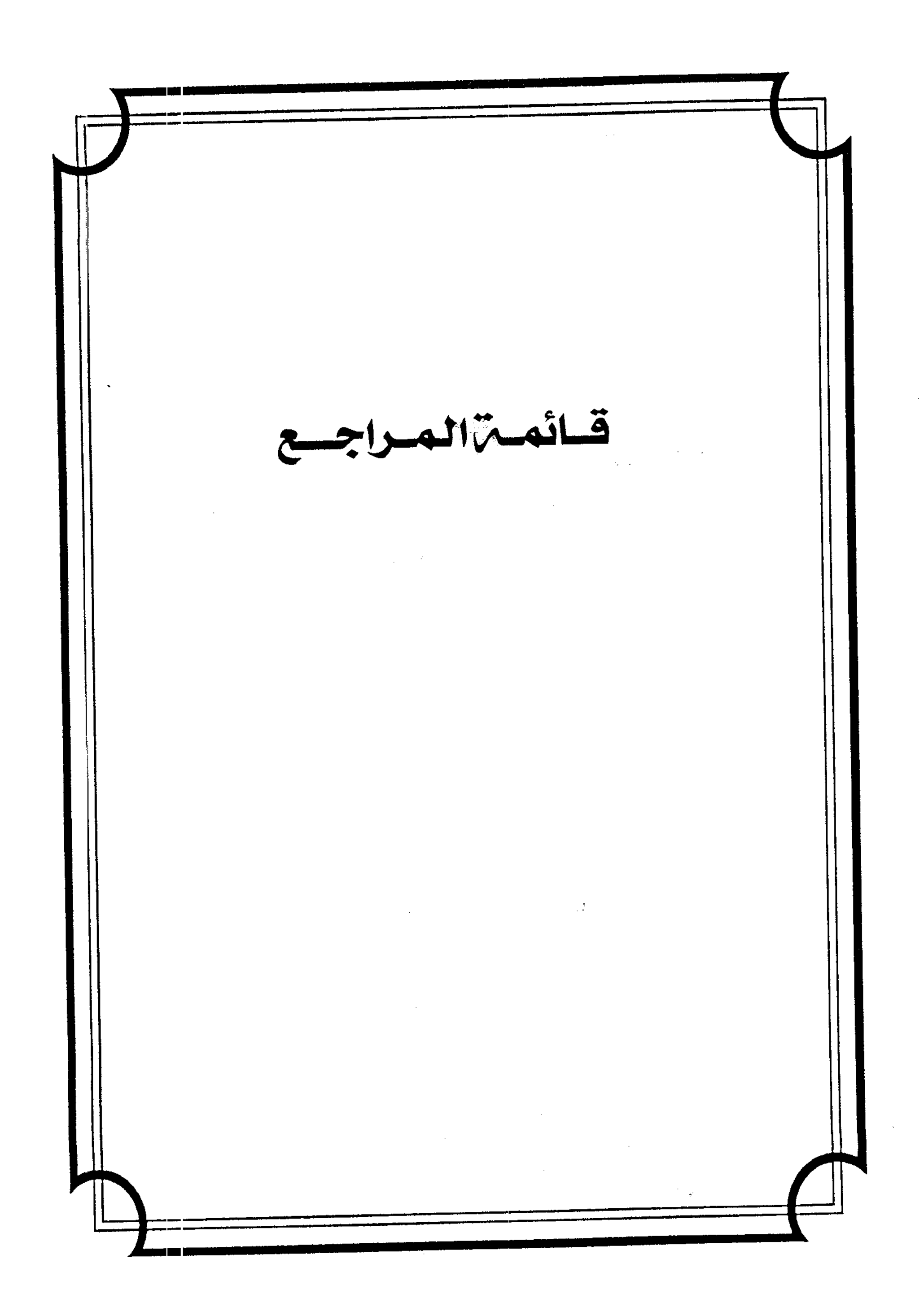
الأرض،الذي يشير إذا وقع إلى ثمة خطأ قائم في التفاعل بين الحضارات والثقافات ينبغي إصلاحه. بذلك تري الحضارة الإسلامية أن التاريخ الحضاري للعالم لم يكن صراعيا ولا صداميا ولكنه من حيث الجوهر تدافعا بصورة مطردة في الاتجاه الصاعد الذي يسلم إلى ازدهار الحياة بتراكم العطاء الحضاري في مختلف المجالات، والي الرقي بالانسان الذي استخلفه الله في الأرض لعمارتها، بينما الصراع يتجه نحو الافساد في الآرض. ذلك يعني أن صراع الحضارات علي هذا النحو ليس حتمية من حتميات التاريخ كما يدعي المنظرون المعاصرون الذين يرسمون معالم سياسة الهيمنة والغطرسة والقوة لقهر ارادات الشعوب (١٠٢).

بالأضافة إلى ذلك تعتبر التقوي القاعدة الرابعة من القواعد الأساسية التي تنظم العلاقات الانسانية بين البشر وبين المجتمعات والحضارات وتضبط التفاعل بينها. وتتعلق التقوى باتقاء الإنسان ما يضره في نفسه وفي جنسه، وما يحول بينه وبين الكمال الممكن. ومن ثمرات التقوي قدرة الانسان علي التفرقة بين الخير والشر، والنافع والضار في هذه الحياة، فالعلم الصحيح والقوة والعمل النافع، والخلق الكريم، وما إلى ذلك من آثار التقوي. علي هذا النحو نجد أن الفهم العميق والشامل لمفهوم التقوي يشير إلى أنه يجمع أطراف الخير ومكارم البر ووجود الاحسان وفضائل الأعمال، وأنه يؤكد علي أهمية التعاون الانساني علي البر والتقوي "ولا تعاونوا علي الإثم والعدوان" (١٠٣).

هذه القواعد الأربعة التي أشرنا اليها نجدها متضمنة في مفهوم الدفع الذي يعبر عن وجهة نظر الحضارة الإسلامية في تفاعل الحضارات. في نطاق ذلك يعني مفهوم الدفع أن الحضارات تتلافح ويكمل بعضها بعضا، وتتعاقب وتتواصل لأنها خلاصة الفكر البشري والابداع الانساني وحركة التاريخ، التي هي في المفهوم الإسلامي سنه الله في الكون، فالصراع بين الحضارات ليس

وارد لأن دورات التاريخ تطرد وفق المشيئة الالاهيه. واذا كان التاريخ هو من صنع الله وحركته محكومة بقوانين أزلية فإن ذلك لا يمنع الانسان من تاسيس إختياراته ولا من تفعيل إرادته، ولكنه يؤكد علي أن ذلك يتحقق في نطاق قوانين التاريخ وحدود المشيئة الإلاهية. وهو ما يعني أن تكريم الله للانسان يتجسد في توسيع المساحة أمام قدراته ليتولي أحيانا صياغة التاريخ والابداع في توجيه حركته لما فيه صالح الحضارة المعينة والحضارات جميعاً.علي هذا النحو يصبح مفهوم التدافع مفهوم قرآني جامع للمعاني والدلالات التي تؤكد بطلان نظرية صراع الحضارات من الأساس، يقول الله تعالي "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض (سورة البقرة : آية ٢٠٥) ويقول أيضا "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها إسم الله كثيراً (سورة الحج. آية ٤٠). أضافة إلى ذلك فإن الله يأمر عبادة بالدفع التي هي أحسن في جميع الأحوال، في قولة تعالي : إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم" (سورة فصلت : الآية ٣٤). ويقول عز وجل "إدفع بالتي هي أحسن السيئه نحن أعلم بما يصفون " (سورة المؤمنون : آية ١٠).

ذلك يعني أنه اذا دعت الحضارة الرأسمالية الغربية من خلال طائفه من مفكريها إلى صراع حتمي بين الحضارات، فإن ذلك يعبر عن دعوة فكرية ضيقة الأفق وذات طابع تكتيكي خالص يفتقد الرؤية الأستراتيجية التي تستند الي الطبيعة أو الفطرة الانسانية السليمة والتي تميل إلى التجمع والتعاون أكثر من ميلها إلى التنافر والصراع. وفي ذلك تحدث مفكرون غربيون كثيرون وحكماء، بما يتسق ورؤية الحضارة الإسلامية ليس باعتبارها دينا بل باعتبارها حضارة تسعي لتجسيد مثل انسانية عظيمة تؤسس نوعية حياة يستحق أن يعيش في اطارها الانسان - أي انسان - الذي كرمه الله وجعله خليفة له في الأرض.



قائمة المراجع

المراجـــــــــع

1. Mortindale, Don : The Place of the Theory of Gvilization in the Sociology of Culture (in) Unnthan, T. K. N & Others Toward A Sociology of Culture in India, Prentice – Hall of India (Private) LTD. New Delhi, 1965, Pp. 3g – 80 esp P. 43.
2. Wolf, Erikr R : Europe and the People Withont History. Berkeley. Los Angles and London. University of California Press, 1982, P. 113.
3. Don Martindale : OP. Cit. P. 50.
4. Rynkiewish, M. A & Other : Ethics and Anthropology,John Wiley & Sons, New York, 1976, P. 73.
5. Martindale, Don : The Nature and Tgpes of Sociological Theory, Haughton Mifflin Company Boston, 1960, P. 471.
6. Linton, Ralf : The Cultural Background of Personality, 4th Impression, 1928, P. 133.
7. Don Martindale, OP. Cit. P. 39.
8. Ibid, P, 40.
9. Ibid, p. 42.
10. Parsons, T : The Social System , Glencom ILL. : The Free Press, 1921, 47.
11. Esposito, J. L : Islam and Politics, Syracuse University Press, 1987, P. 2.
12. Ibid, P. 13.
13. T. Parsons : OP. Cit. P. 87.
14. Ibid, P. 92.
15. Don Martindale : Op, Cit. P. 39.
16. Rolf Linton : Op, Cit. P. 92.
17. Don Martindale, Op, Cit, P. 34.
18. Ibid, P. 40.
19. Ibid, P. 42.

20. Erik. R. Wolf : Op, Cit, P. 52.
21. Abdel- Hakim. S. S : Culture Encounters, Conflict, Dialague, Or What ? Current Western Theoric Paradigms of Cross Cultural Relations, (in) Cairo Studies in English, "Special Issue" Pp. 305 – 320 esp. P. 309.
22. Ibid, P. 309.

٢٣. السيد يس : حوار الحضارات، بحث غير منشور، بدون تاريخ، ص ص ٨ –٩

24. S.S Abdel Hakim, Op, Cit, P. 316.
25. Ibid, P. 317.
26. Ibid, Pp. 317- 318.
27. Ibid, Pp. 318-319.
28. Ibid, P. 320.
29. Ibid, Pp. 321 – 322.
30. Simmel, G : Conflict and the Web of Group Affiliations. New York, Free Press, 1955, P. 47.
31. Ibid, P. 52.

٣٢. علي ليلة : كارل ماركس، والبحث في أصل النظام الرأسمالي، الدار المصرية للطباعة والنشر الأسكندرية، ٢٠٠٤ ص ٧٢.

٣٣. جذور الصراع في الفكر الأوربي http : // www. Isosco. Org. Ma / Pub / ARABIC / Civ. P. 3. htm.

٣٤. نفس المرجع.

٣٥. نفس المرجع.

٣٦. محمد خاتمي : "رئيس الجمهورية الإسلامية الأيرانية " السابق": مدينة السياسة، فصول من تطور الفكر السياسي في الغرب، دار الجديد، الطبعة الأولي، بيروت ٢٠٠٠ ص ص ١٨٣ – ١٨٤.

37. http.www. Isesco. Org. Ma/ ARABic / Civ / Page 5. htm.
38. Ibid, P. 5.
39. Harris, Marvin : The Rise of Anthropological Theary London. Kegan Paul, 1968, P.32.

40. Malinowski, B : Arganauts of the Wastern Pacific, London, 1934, P. 143.
41. Don Martindale : The Place of The Theary of Civilization in the Socialogy of Culture.Op, Cit. P. 40.
42. Eisenstdt, S. N : Social Change, Differentiation and evolution (in) N. J. Demerath III & Richard Peterson (ed). System Charg and Conflict, New York, 1968, P. 132.
43. Malinowski. B : A Scientific Theory of Culture and Other Essags, A Goloxy Book, New York, Oxford Press, 1960, P. 72.
44. S. N. Eisenstdt : Op, Cit, P. 83.
45. Don Martindole : The Nature and Types of Sociological Theory, Op, Cit, P. 111.
46. Ibid, P. 112
47. S. N. Eisenstdt : Op, Cit. P. 86.
48. Don Martindale : The Nature and Types of Sociological Theory, Op, Cit. P. 112.
49. Ibid, Pp. 113 – 113.
50. Ibid, Pp. 113 – 115.
51. Ibid, P, 112.
52. Ibid, P, 116
53. Ibid, P. 117.
54. Ibid, P. 117
55. Ibid, P. 118
56. J. L. Asposito : Op. Cit, P. 28
٥٧. فرانكلين ل. باومر، الفكر الأوربي الحديث : الاتصال والتغير في الأفكار، من ١٦٠٠ – ١٩٥٠، الجزء الثالث، ترجمة أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩، سلسلة الألف كتاب، ص ٩٨.
٥٨. نفس المرجع، ص ١١٣.

٥٩.عبد العزيز التويجري : الحوار من آجل التعايش، دار الشروق، القـــاهرة، ١٩٩٨، ص ص ٢٢ – ٢٣.
٦٠.علي ليلة : أزمة الحجاب الإسلامي في فرنسا. وجهة النظـــر العربيـــة أو الإسلامية، برنامج حوار الحضارات، كلية الاقتصاد والعلـــوم الـــسياسية، ٢٠٠٤ "ندوة". ص ١٣.
٦١.عبد العزيز التويجري : مرجع سابق، ص ٢٢.
62. S. S. Abdel Hakim, Op, Cit, P. 38.
٦٣.عبد العزيز التويحري، مرجع سابق ص ٢١.
٦٤.نفس المرجع، ص ٢١.
65. Merton. K. R : Social Theory and Social Structure, the Free Press of Glencoe, 1962, P. 140.
٦٦.جعفر شيخ إدريس، حول صراع الحضارات، مجلة الفصل العدد ٥٧، ص ص ٥١ – ٥٣.
67. Coser, Lewis : Social Functions of Social Conflict, the Ferr Press, New York, 1973, P. 63.
٦٨. فرانكلين ل. ياومر، مرجع سابق، ص ٢٠٣.
69. S. S. Abdel Hakim , Op, Cit. P. 309.
70. Ibid, P. 310.
71. Ibid. P. 309.
72. Ibid, P. 309.
73. Ibid, P. 309.
74. Ibid, P, 310.
75. Ibid, P. 311.
76. Ibid, P. 310.
77. Ibid, P. 311.
٧٨.علي ليلة : فاكس فيبر. البحث المضاد في أصل الرأسمالية المعاصرة الدار المصرية للطباعة والنشر، ٢٠٠٤ ص ص ٦٣ – ٦٤.

٧٩.علي ليلة : العالم الثالث مشكلات وقضايا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٧، ص ص ٥٣٣ – ٥٣٤.

٨٠.علي ليلة :

٨١.محمد عابد الجابري : صراع الحضارات أم توازن المصالح
http : // www. Nawaat. Org / Portail / article. Php 3 ? id artice 342

٨٢.نفس المرجع ص ٤٨.

٨٣.نفس المرجع ص ٤٧.

٨٤.جعفر شيخ إدريس : صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الأنسانية "مؤتمر" مجلة البيان، الخرطوم، ٢٠٠٢ ص ١٠

٨٥.نفس المرجع، ص ١٢.

٨٦.جعفر شيخ إدريس، حول صراع الحضارات، مجلة الفيصل، مرجع سابق، ص ٣٢.

٨٧.جعفر شيخ إدريس، صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية مرجع سابق، ص ١١.

88. Lewis, Bernard : The Middle east and the west, Weidenfeld & Nicholson, 1963, P. 32.
89. Crozier, E : The Crises of Democracy , Huntingtas, et Watanuki, New York Press University, 1975, P. 112.

٩٠.جعفر شيخ إدريس ك صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٤.

٩١.حسن النديم : ضربات الاقتصاد.. هل تفجر صراعات المجتمع.
http : // www. Islamonline.net / Arabic / economics / 2001 / og article &. shtml

٩٢.نفس المرجع.

٩٣.نفس المرجع.

٩٤.تييري ميسان : في صراع الحضارات هــل هــو حتمــي، http: www. Shabakatvoltaire,net / article 129.htmel ترجمة ياسمينة صالح ٢٠٠٤.
محفوظة (٢).
٩٥.تشاندرا مظفر : صراع الحضارات حقيقة أم وهم.
http:// news. Bbc.co.uk /hi/Arabic/ talking – point /2003/ rawadan – debates/ Newsid 32/000-0/32/022g.stm.
٩٦.جعفر شيخ إدريس، حول حوار الحضارات مرجع سابق.
٩٧.نفس المرجع.
٩٨.طارق علي: لا حديث عن صراع الحضارات في غياب البترول بــالأرض الإسلامية. http;//www.shabakatvoltaire. net /imprimer 189. html.
٩٩.نصر حامد أبو زيد : تنوع الحضارات وصرخة من أجل عالم عادل.
http: // www.qantara. De /web com /print- site. Php.
١٠٠.صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي
١٠١.محمد عدنان سالم، من صراع الحضارات إلى حــوار الثقافــات العــالم العربي ضيف الشرف في معرض فرانكفورت ٢٠٠٤.
http : // www.IsescoOrg. ma/ pud / ARABIC/ civ/ page 8. htm.
١٠٢.نفس المرجع.
١٠٣.نفس المرجع.